أسباب الانحراف في فهم السنة ومظاهره قديمًا وحديثًا

كريمة بنت علي المزودي[1]

مقدمـة

إن الحمد لله نحمده وستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد :

فإن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فكل ما صدر عن الرسول ρ من قول أو فعل أو تقرير المنقول إلينا بسند صحيح يفيد القطع أو الظن الراجح بصدقه، يكون حجة على المسلمين ومصدرا تشريعيا تستنبط منه الأحكام الشرعية لأفعال المكلفين. والسنة بيان للقرآن الكريم، تفسر مجمله وتخصص عامه وتقيد مطلقه، وتنسخه وتنسخ به. فهي بذلك تستمد قداستها من القرآن، لقوله تعالى: **[وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى]** {النَّجم: ٣-٤} ، قال الإمام الشافعي: "فيما وصفت من فرض الله على الناس إتباع أمر رسول الله دليل على أن سنة رسول الله إنما قبلت عن الله، فمن اتبعها فبكتاب الله تبعها، ولا نجد خبرا ألزمه الله خلقه نصا بينا إلا كتابه ثم سنة نبيه" [2] .

والقرآن والسنة بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما[3]. قال تعالى : **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا]** {النساء:٥٩} . وقال ابن حزم : "الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين: أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام وهو القرآن، والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا، قال تعالى : **[لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ]** {النحل:٤٤} ، ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثاني كما أوجب طاعة القسم الأول الذي هو القرآن ولا فرق" [4].

ورحمة منه I أن حفظ لهذه الأمة مصادر شريعتها من أن يضيع منها شيء، أو ينال منها أحد بالدس والتحريف، فحفظ السنة بما حفظ به الذكر، قال تعالى: **[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ]** {الحجر:٩} . فأخبرنا تعالى أن كلام نبيه ρ كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكر محفوظ بنص القرآن، فصح بذلك أن كلامه ρ كله محفوظ بحفظ الله Y، مضمون لنا أنه لا يضيع منه

---

(١) دكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة محمد الخامس .

(٢) الرسالة ص : ١٠٨-١٠٩.

(٣) انظر : الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٩٨/١.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام ٩٦/١.

شيء، فما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء، فهو منقول إلينا كله [٥]. لكن حكمة الله قضت أن تختبر هذه الأمة في سنة نبيها، فتحاك حولها الدسائس والمكائد من كل جانب، وتلصق بها الأكاذيب والافتراءات، ليختبر الله تعالى من يثبت قلبه على الحق من هذه الأمة ومن يزيغ. وقد سبق في علمه ρ أن سنته المطهرة ستستهدف من قبل أصحاب البدع والأهواء المارقين عن الدين، فحذر أمته من ذلك فقال ρ : "**سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم**"،[٦] وقال عليه الصلاة والسلام : "**من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار**" [٧]. وحذر من الشناعة في الحديث لأن ذلك مدعاة لفتنة الناس، فقال ρ: "**كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع**"،[٨] وحضهم على تبليغ حديثه كما سمعوه منه فقال ρ: "**نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه**"[٩].

وبدأت بوادر الانحراف في فهم السنة النبوية تظهر في النصف الثاني من خلافة عثمان رضي الله عنه، وازدادت بعد جيل الصحابة مباشرة، فظهرت الفتن والاضطرابات، وتعددت الطوائف والمشارب، ووجد كثير من ذوي الأغراض الخبيثة في السنة مجالا رحبا لتأييد آراءهم ومذاهبهم من جهة، وضرب هذا الدين في العمق من جهة أخرى. فعمدوا إلى نصوصها يحملونها من التأويل ما لا تحتمل، فلما أعياهم ذلك عمدوا إلى الكذب والاختلاق. أما الكتاب فحاولوا تأويله بما يوافق أغراضهم، إذ لم يتمكنوا أن يمسوا منه أي حرف بأدنى تحريف أو تبديل. فكثر الوضع ونسبت أكاذيب كثيرة للرسول ρ ، وأثيرت قضايا أثرت سلبا في فهم السنة النبوية وشوشت عليها كمسألة خلق القرآن... وغيرها من القضايا.

وقد حاولت من خلال هذا البحث الوقوف على أسباب الانحراف في فهم السنة النبوية في القديم والحديث، مبينة دوافعه الأساسية، وتناولتها بالدراسة والتحليل، وبينت أثرها على الشريعة بشكل عام.

وقد قسمت هذا العمل إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول استعرضت فيه أسباب الانحراف في فهم السنة في القديم. والفصل الثاني بينت فيه منهج المحدثين في تقويم هذا الانحراف. أما الفصل الثالث، فقد استعرضت فيه أسباب الانحراف في فهم السنة في العصر الحديث. لكن ما ينبغي التأكيد عليه هنا هو أن هذا الموضوع غاية في الأهمية، وقد حاولت الاختصار قدر الإمكان حتى لا يخرج البحث عن الحجم المحدد، مركزة على النقاط الأهم في البحث، لتحصل بذلك الفائدة بإذن الله.

وفي الختام، أتقدم بجزيل الشكر لخدام السنة النبوية الشريفة أعضاء مؤتمر السنة النبوية

---

(٥) انظر : الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٩٨/١-٩٩.

(٦) مقدمة صحيح مسلم، ص : ١٢.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في صحيحه ٢٠٠/١ كتاب العلم – باب إثم من كذب على النبي ρ .

(٨) مقدمة صحيح مسلم١٠/1.

(٩) أخرجه أبو داود في سننه ٣١٨/٣-٣١٩ كتاب العلم – باب فضل نشر العلم.

بكلية أصول الدين في غزة، على اهتمامهم الكبير بالسنة النبوية وتشجيعهم للباحثين في هذا العلم الجليل. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

أسباب الانحراف في فهم السنة النبوية قديماً

المبحث الأول : أسباب مباشرة .

١- الفتن السياسية :

بدأت بوادر الانحراف في فهم السنة النبوية تظهر في النصف الثاني من خلافة عثمان τ ، إذ حدث في جسم الأمة الإسلامية شرخ خطير، وأعقب ذلك ظهور أحزاب سياسية، وبدأ بعض المنحرفين عن المنهج الإسلامي يتربصون بالسنة النبوية باعتبارها المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فكثر الوضع في صفوف المتحزبين، خاصة بعد مقتل عثمان τ ، فكان العثمانيون يضعون الأحاديث التي تثبت أن عثمان قتل مظلوما وأنه شهيد. وبرزت الشيعة على الساحة السياسية معلنة الولاء لعلي كرم الله وجهه، فغالوا فيه حتى ألهه بعضهم، كما فعل عبد الله بن سبأ، [١٠] فقد نشر مذهب الوصاية الذي أخذه من اليهودية دينه القديم، ويدعي من خلاله أن عليا كرم الله وجهه وصي محمد ρ ، وأنه خاتم الأنبياء بعده، كما أخذ من الفرس نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبي ρ ، وأنه يستمد الحكم من الله، فوضع أحاديث تؤيد نظريته هذه، فهيأ العقول لتقبلها.

كما وضعوا أحاديث ليست بالقليلة تزري بمكانة الشيخين، ويرد عليهم أهل السنة بوضع الأحاديث عن الرسول ρ انتصارا، محلين الكذب على الرسول ρ لاعتقادهم الخاطئ أنهم يكذبون له لا عليه، وتبرز الأموية في عالم السياسية، ويقع الصدام بينها وبين الشيعة، فيكثر الوضع من الفريقين.. واتسعت رقعة الأحزاب السياسية على الساحة الإسلامية، واتسعت معها رقعة الوضع، وعرف العراق رواجا في وضع الأحاديث، حتى أضحى مسرحا لحركة الوضع ولقب بدار الضرب، خاصة في الكوفة معقل الشيعة. ولم يعد وضع الأحاديث وقفا على الأحزاب السياسية، بل مارس الوضع العامة كذلك.

فقد كثر وضع الأحاديث في صفوف الأدعياء، أذكر منهم : المختار الثقفي الذي قال لرجل من الأنصار : ضع لي حديثا عن النبي ρ أني خليفته من بعده، وهذه عشرة آلاف درهم ومركوب وخادم، فرفض الأنصاري أن يضع على النبي ρ وقال له : أضع عن أحد الصحابة، وأضع لك من الثمن، قال المختار : عن النبي أوكد، قال : والعذاب أشد [١١].

---

(١٠) أصله من اليمن، وكان يهوديا فأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة. وأسند ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: أول من كذب عبد الله بن سبأ. وفي مسند أبي يعلى أن أبا الجلاس قال: "سمعت عليا يقول لعبد الله بن سبأ : والله ما أفضى إلي –يعني النبي صلى الله عليه وسلم– بشيء كتمه من الناس. ولقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا وإنك لأحدهم. مسند أبي يعلى ٣٤٩/١ رقم الحديث ٤٤٩، وقال ابن حجر : وله أتباع يقال لهم السبئية معتقدون الإلهية لعلي بن أبي طالب.

انظر : لسان الميزان ٢٩٠/٣ وميزان الاعتدال للذهبي ٤٢٦/٢.

(١١) انظر : الموضوعات لابن الجوزي ٣٩/١.

٢- الزنـادقـة:

وهم قوم يتسترون بالإسلام ويضمرون العداء للمسلمين [١٢] . وهم المجترئون الأولون على الكذب على رسول الله ρ ، هدفهم الدس على الدين والتلبيس على المسلمين من خلال ضرب السنة النبوية، لعلمهم بمكانتها العظيمة في الإسلام. فكانوا يدخلون المدن ويتشبهون بالعلماء ويحضرون مجالس العلم ويحدثون عن العلماء، ثم يضعون عليهم الأحاديث ليوقعوا الشك في قلوب المسلمين. قال حماد بن زيد : "وضعت الزنادقة على النبي ρ أربعة عشر ألف حديث"، [١٣] فقد اعترف كبير الزنادقة عبد الكريم بن أبي العوجاء عندما قدم لضرب عنقه بأنه وضع أربعة آلاف حديث، قال هذا اللعين : "والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحل الحرام، ولقد أفطرتكم في يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم" [١٤] .

وكان قد وضع هذا الزنديق أحاديث بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل، وضعها لتغير أحكام الشريعة، وهو الذي أفسد على الرافضة صوم رمضان بالهلال وردهم عن اعتبار الأهلة بحساب وضعه لهم ونسب ذلك الحساب إلى جعفر الصادق، [١٥] وذكر الحافظ الذهبي أن الرشيد عندما أخذ زنديقا من الزنادقة ليقتله، قال له هذا الزنديق : "أين أنت من ألف حديث وضعتها ؟ فقال له الرشيد : أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك ينخلانها ويخرجانها حرفًا حرفًا" [١٦]. وقد كثر عددهم في مطلع الخلافة العباسية، واندسوا بين المحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء، وبين الثوار والمتمردين أيضا، يوحدهم هدف واحد : ضرب دين الإسلام عن طريق السنة النبوية، وساهموا في انتشار الملل والنحل الزائغة كالمانية والديصانية والمرقيونية [١٧]... كما عملوا على بعث القومية والشعوبية والترويج لها لبث الفتنة بين المسلمين وتقويض وحدتهم. وعرف الخليفة المهدي (١٥٨هـ-١٩٨هـ) بصاحب الزنادقة، فقد أنشأ ديوانا لملاحقة الزنادقة فنكل بهم، وقتل منهم الكثير، [١٨] لكن مذاهبهم وآراءهم الفاسدة، وأحاديثهم الكاذبة، التي انتشرت بين الناس، لم يستطع المهدي ولا غيره من الخلفاء القضاء عليها بالسيف، بل انبرى لها علماء وأئمة الحديث ونقاده، فعكفوا عليها لقرون طويلة حتى نخلوها وفرزوا صحيحها عن سقيمها.

---

(١٢) انظر : تنزيه الشريعة لابن عراق ١١/١.

(١٣) تنزيه الشريعة لابن عراق ١٩/١.

(١٤) المرجع السابق ١٩/١.

(١٥) انظر : الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص : ٢٥٥-٢٥٦.

(١٦) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٧٣/١.

(١٧) نسبة إلى ماني رجل مجوسي من بابل ادعى النبوة و حاول إقامة صلة بين ديانته و الديانة المسيحية و البوذية ، و كتب إتجيله الذي أراده أن يكون نظيرا لإنجيل المسيح عليه السلام. و الديصانية نسبة إلى أصحاب ديصان، لها أصول مجوسية ، و كذلك المرقرونية. انظر في هذا الباب: الفهرست لابن النديم ص٣٠:- مروج الذهب للمسعودي٣١٥/٤ - نقد المسلمين للقنوية و المجوس مع الرد على ابن المقفع لقاسم بن إبراهيم الرسي ص:٣٥ .

(١٨) المرجع السابق ٣١٥/٤.

٣- الفرق الكلامية وأصحاب الفلسفة والمنطق :

لم يكن الفلاسفة المسلمون بمعزل عن الفلاسفة المسيحيين، إذ كلا الفريقين تأثر بالفلسفة اليونانية، وما تحمله في طياتها من بذور الوثنية. لقد احتكت المسيحية بالمدارس الفلسفية المنحدرة من اليونان، وتأثر علماء الديانة المسيحية بالفلسفة الأفلاطونية منها خاصة، والتي تقول بضرورة الوسيط بين الله والعالم. فظهرت فكرة التثليث في العقيدة المسيحية [١٩]. فأخضع الدين للفلسفة، ففقدت المسيحية إشعاعها العقائدي. أما الفلاسفة المسلمون، فقد رفعوا لواء التوفيق [٢٠] بين الفلسفة والدين، باعتبار أن هذا الأخير لا يتناقض مع العقل [٢١]. ولتأكيد نظريتهم الفلسفية هذه، لجؤوا إلى تأويل الآيات القرآنية والنصوص الحديثية على نطاق واسع. لقد نحى الفلاسفة المسلمون خاصة الفارابي وابن سينا منحى توفيقيا معتمدين في ذلك على فكرة الفيض [٢٢] الأفلاطونية موسعين من دائرتها، فوقعوا في الوثنية المأخوذة من الفكر اليوناني، فجعلوا العقول السماوية عشرة وبنوا عليها فلسفتهم كلها. فخاضوا في قضايا فلسفية محضة، كذات الله وصفاته وقدم العالم... وغيرها من القضايا التي يعتبرها الإسلام كفرا وخروجا عن الملة كقولهم : "إن الله يجهل الجزئيات" ! فأحدثوا بلبلة على الساحة العلمية والفكرية الإسلامية وشوشوا على أئمة العلم، خاصة علماء الحديث. وانشغل الناس بهذه القضايا وخاضوا فيما لا يحق لهم كمسلمين الخوض فيه، وبرزت الفرق الكلامية على الساحة الفكرية، وناقشت هذه القضايا بحجة الرد على الفلاسفة. وكان الخليفة المهدي قد أمر المتكلمين وأهل الجدل بتصنيف الكتب للرد على الملحدين[٢٣] وهم الفلاسفة، فطرحت مسائل أخرى زادت من حدة الجدل كالإيمان يزيد وينقص، وكلام الله مخلوق، والقضاء والقدر وصفات الله... وغيرها من القضايا والمسائل الفلسفية الدخيلة على الساحة الفكرية الإسلامية. ولما كانت حجة الفلاسفة هو تقرير الحقائق ثم الرد عليها، على اعتبار أن منهجهم يقوم على البحث في المسائل الغيبية بحثا مجردا، وهو البحث في المسائل كما يدل عليها البرهان ثم الإيمان بالنتيجة التي توصل إليها. فإن حجة الفرق الكلامية : "الكتاب والسنة"، لذلك كثر وضع الحديث، وتأويل القرآن والسنة على نطاق واسع في صفوفهم بما يوافق مذهبهم وأهواءهم، حتى عرفوا عند علماء الحديث "بأهل البدع والأهواء". فوضع في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه على سبيل المثال

---

(١٩) انظر : مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عابد الجابري ٣٠/١.

(٢٠) ذهب الفلاسفة المسيحيون إلى ذلك من قبل، فقالوا بالتوفيق بين العقيدة التي بشر بها عيسى عليه السلام والتي تقول بإله واحد، وبين الأفلاطونية الحديثة التي تقول بضرورة الوسيط. أنظر : مدخل إلى القرآن الكريم للجابري ٣٠/١.

(٢١) انظر : الرسائل الفلسفية لأبي يوسف الكندي ص : ٣٧٣.

(٢٢) وتقتضي هذه الفكرة أنه بما يعقل العقل الأول (الإله) ذاته يفيض عنه عقل ثان مثله، وهذا العقل الثاني يعقل ذاته ويعقل مصدره الذي فاض عنه، فيفيض عنه عقلان، أحدهما من كونه عقل مصدره (العقل الأول) والآخر من كونه عقل ذاته، ويستمر فيض العقول بهذا الشكل كحل لمشكلة صدور الكثرة عن الواحد.. إلى العقل العاشر. أنظر : مدخل إلى القرآن الكريم للجابري ٣٠/١.

(٢٣) انظر : مروج الذهب للمسعودي ٣١٥/٤.

أحاديث عديدة رفعوها إلى الرسول ρ ، أذكر منها: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص من قال غير ذلك فهو مبتدع"، وضعه أحمد بن محمد بن حرب. ووضع آخرون عكسه: "من زعم أن الإيمان يزيد وينقص فزيادته نفاق ونقصانه كفر، فإن تابوا وإلا فاضربوا أعناقهم بالسيف" وضعه محمد ابن القاسم الطلقاني.. وغيرها من الأحاديث[٢٤]. لقد جعلت الفرق الكلامية مسألة الرد على الفلاسفة أساسا لبحثهم، ثم إنهم انقسموا على أنفسهم، فالمعتزلة أخذوا من الفلاسفة ثم ردوا عليهم والجبرية ردوا على المعتزلة وأخذوا من الفلاسفة وردوا عليهم، وكذلك الجهمية والمرجئة... كل فرقة تنتصر لرأيها وتختلق الأحاديث، ووقف أهل السنة موقف المدافع عنها فوضعوا بدورهم أحاديث تكفر الفرق الكلامية والفلاسفة على حد سواء، وتجعلهم في أعين العامة خارجين عن الملة. وسطع نجم المعتزلة في خلافة الواثق (٢٢٧هـ-٢٣٢هـ) الذي دخل في صراع مع الفقهاء والمحدثين خاصة في مسألة "خلق القرآن". لقد حولوا الإسلام إلى مناظرات ومجادلات، واختلقوا أحاديث وأولوا آيات، بما يوافق الميول والأهواء.

أثر هذه القضايا على السنة النبوية وعلى أئمتها :

مرت السنة النبوية المطهرة -خلال هذه الحقبة- بامتحان عسير، حرفت متونها وأسانيدها، وأولت مضامينها الشرعية حسب الميول والأهواء، وحورب أئمتها وحيكت حولهم الدسائس والمكائد من كل جانب، ورموا بالافتراءات والأكاذيب، وسجنوا وعذبوا ومنعوا من أداء واجبهم العلمي، وأحيطوا بسياج من الفتن، أثر على مردودهم العلمي والمعرفي، فتعطلت حلقات العلم لكبار أئمة الحديث. ومن القضايا التي كانت لها عواقب خطيرة على السنة النبوية وعلى أئمتها : "قضية خلق القرآن" أو محنة خلق القرآن كما سماها المحدثون، وهي من القضايا الفلسفية التي شغلت الساحة الفكرية الإسلامية لعقود طويلة، ظهرت مع عصر المأمون (١٩٨هـ-٢١٨هـ) واستمرت حتى عصر الواثق، وهي من القضايا التي أثارتها الفرق الكلامية وروجت لها، فذهبت فرقة إلى أن كلام الله مركب من حروف متعاقبة في الوجود فهو حادث مخلوق، وذهبت أخرى إلى عكس ذلك فقالت : كلام الله هو صفة له، وكل ما هو صفة لله قديم، فالقرآن قديم غير مخلوق.

وهكذا، امتحن في هذه المسألة كبار أئمة الحديث وحفاظه، وحدثت بشأن ذلك فتنة كبيرة داخل صفوفهم، مع العلم أنهم لم يخوضوا في هذه المسألة ولا في غيرها من المسائل التي طرحها الكلاميون ولم يبحثوا فيها، لعلمهم أنها قضايا توقيفية لا ينبغي للمسلم الخوض فيها. لكنهم مع ذلك ابتلوا فيها أشد البلاء، وانشغلوا بها إلى أقصى الحدود، فأثرت على المسار العلمي والتعليمي للسنة النبوية في ذلك الزمان، باعتبار أن هؤلاء الأئمة هم مصدر السنة النبوية، فمن أفواههم يؤخذ الحديث النبوي ويطلب، وتضرب إليهم أكباد الإبل، وكانت إليهم الرحلة من الآفاق. فحدث شرخ خطير في صفوفهم، إذ تحولت هذه القضايا إلى اتهامات رموا بها بعضهم بعضا، فحدثت داخلهم فتنة عظيمة. ومن الأئمة الذين امتحنوا في مسألة اللفظ : الإمام أحمد بن حنبل[٢٥] (ت ٢٤١هـ) الذي سجن وعذب ومنع من

---

(٢٤) انظر : الموضوعات لابن الجوزي ١/١٣٠-١٣٣.

(٢٥) انظر : مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي.

رواية الحديث، لهذا السبب لم يرو البخاري عنه مع أنه التقى به. ثم اتخذ بعد ذلك موقفا معاديا لأئمة الحديث الذين توقفوا في مسألة اللفظ. كعلي بن الجعد الحافظ (ت ٢٣٠هـ) شيخ الشيخين، الذي توقف الناس عن أخذ حديثه [٢٦] . وإسحاق بن أبي إسرائيل الحافظ الثقة (ت ٢٤٤هـ) قال فيه أحمد بن حنبل : "إسحاق بن أبي إسرائيل واقفي مشؤوم، " وكان الناس قد توقفوا عن أخذ حديثه. قال ابن أبي حاتم : "وقف في القرآن فوقفنا عن حديثه، ولقد تركه الناس حتى كنت أمر بمسجده وهو وحيد لا يقربه أحد"[٢٧]. أما الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) فقد حسده في العلم شيخه الإمام محمد بن يحيى الذهلي (ت ٢٥٨هـ)، فلم يجد غير مسألة اللفظ ليرميه بها، فكانت كافية لتفريق الناس عن مجلسه واعتزال حديثه، فجلس في داره [٢٨]. ولم يكتف الذهلي بذلك بل كتب للولاة والعلماء بالتشنيع عليه بمسألة اللفظ ورماه بالاعتزال. فقام أمير بخارى بنفي الإمام البخاري على الفور. وأرسل في طلبه أهل سمرقند فلبى دعوتهم، وعندما كان في الطريق إليهم بلغه أن فتنة وقعت بين أهل سمرقند بسببه، فقوم يريدون دخوله، وآخرون يكرهون ذلك بسبب ما وصلهم من مسألة اللفظ. فحزن الإمام البخاري لذلك كثيرا، ودعا من فرط حزن : "اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك"، فتوفي بعدها بقليل[٢٩]. وظلت هذه التهمة لاصقة به حتى بعد مماته، قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ [٣٠] عند ترجمة الحافظ أبي الوليد حسان بن محمد النيسابوري– : "قال الحاكم : سمعت أبا الوليد يقول : قال أبي : أي كتاب تجمع ؟ قلت : أخرج على كتاب البخاري، قال : عليك بكتاب مسلم، فإنه أكثر بركة، فإن البخاري كان ينسب إلى اللفظ". قال الذهبي "ومسلم أيضا منسوب إلى اللفظ، والمسألة مشكلة" [٣١]. وقد رمي الإمام مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) بالاعتزال، وطرده الإمام الذهلي من مجلسه العلمي، فجمع مسلم كل ما كان كتبه عنه وبعث به على ظهر حمال إلى بابه [٣٢]. ورمي عدد كبير من أئمة الحديث بهذه المسائل منهم رجال الصحيحين كعمرو بن دينار وقتادة بن دعامة الدوسي رميا بالقدر والتشيع وعكرمة بالإباضية وعبد الله بن أبي نجيح بالاعتزال وعبد الوارث بن سعيد بن شبل وسيف بن سليمان وهشام الدستوائي وسعيد بن أبي عروبة وسلام بن مسكين الازدي.

رموا جميعًا بالقدر، وعلقمة بن مرثد وعمرو بن مرة ومسعر بن كدام رموا بالإرجاء، وعبيد الله بن موسى وخالد بن مخلد القطواني وعبد الرزاق بن همام الصنعاني رموا بالتشيع، وعبد الحميد الحماني بالإرجاء[٣٣] ... وهؤلاء كلهم أئمة الرواية وحفاظ الحديث وجهابذته، وركائز السنة النبوية

---

(٢٦) انظر : سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٥١٦/١٣.

(٢٧) سير أعلام النبلاء ٤٧٦/١١–٤٧٧.

(٢٨) مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر ص : ٤٩٤.

(٢٩) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١١/٢.

(٣٠) ٨٩٥/٣.

(٣١) تذكرة الحفاظ ٨٩٥/٣.

(٣٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٠٣/١٣.

(٣٣) انظر : تدريب الراوي للحافظ السيوطي ص: ٢١٦.

المطهرة، تكلم فيهم وطعنوا في عدالتهم من قبل عدد من نقاد الحديث، الذين وقعوا ضحية هذه الفتنة، فأثر ذلك على منهجهم العلمي، قال الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله : "إن رجال الجرح والتعديل قد عدوا في مصنفاتهم كثيرا ممن رمي ببدعة، وسندهم في ذلك ما كان يقال عن أحد من أولئك أنه شيعي أو خارجي أو ناصبي... أو غير ذلك، مع أن القول عندهم بما ذكر قد يكون تقولا وافتراء، ومما يدل على ذلك أن كثيرا ممن رمي بالتشيع من رواة الصحيحين لا تعرفهم الشيعة أصلا" [٣٤].

والمطلع على كتب الرجال يلمس مدى تأثير هذه القضايا الغيبية على أئمة الحديث، وكيف انشغل بها وسطهم العلمي، فنجد أقوال النقاد تتضارب في الراوي الواحد، كمثال على ذلك: إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق الباهلي الحافظ (ت ١٩٨هـ) وثقه النسائي ورماه ابن حبان بالإرجاء [٣٥] . وعلي بن الجعد الحافظ العلم (ت ٢٣٠هـ) وثقه ابن معين وأبو حاتم ورماه الجوزجاني بالغلو في التشيع [٣٦] .

أما الإمام أبو عبد الرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ) أحد ركائز السنة النبوية وأحد الأئمة الستة، الذي قال فيه الحافظ الذهبي : "لم يكن في رأس الثلاث مئة أحفظ من النسائي وهو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم ومن أبي داود ومن أبي عيسى وهو جار في مضمار البخاري وأبي زرعة" [٣٧]. فقد رمي بالتشيع وضرب بمسجد دمشق من قبل الخوارج حتى مات. وكان الإمام النسائي قد صنف كتابا في فضائل علي كرم الله وجهه، فأخذ على ذلك في دمشق. قال محمد بن موسى المأموني صاحب النسائي : "سمعت قوما ينكرون على أبي عبد الرحمن النسائي كتاب "الخصائص" لعلي τ، وتركه تصنيف فضائل الشيخين، فذكرت له ذلك فقال : دخلت دمشق والمنحرف بها عن علي كثير، فصنفت كتاب "الخصائص" رجوت أن يهديهم الله تعالى. ثم إنه صنف بعد ذلك فضائل الصحابة، فقيل له وأنا أسمع، ألا تخرج فضائل معاوية τ؟ فقال : أي شيء أخرج حديث[٣٨] اللهم لا تشبع بطنه؟ ! فسكت السائل" [٣٩]. لكن المنحرفين عن علي τ لم يسكتوا، بل انهالوا عليه ضربًا في خصيتيه حتى أخرجوه عن المسجد فمات رحمه الله من جراء ذلك [٤٠] .

لقد شغلت هذه القضايا الفلسفية الساحة الفكرية والعلمية الإسلامية لعقود طويلة، وأحدثت بلبلة عظيمة، وشوشت على أئمة الحديث، فانشغلوا بها في مجالسهم العلمية والعائلية، ودونوا أحداثها في مصنفاتهم، ذكر الحافظ الذهبي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم أنه قال "قال أبو زرعة: كان بالبصرة

---

(٣٤) قواعد التحديث ص : ١٧٧.

(٣٥) الثقات لابن حيان ٨/ ٧٦ – سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٢/١.

(٣٦) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٩٠/٧.

(٣٧) سير أعلام النبلاء ١٣٣/١٤.

(٣٨) أخرجه مسلم في صحيحه ١٥٥/١٦-١٥٦ كتاب البر والصلة – باب من لعنه النبي ρ أو سبه : عن ابن عباس قال : "كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ρ فتواريت خلف باب، قال : فجاء فحطأني حطأة وقال : اذهب وادع لي معاوية. قال : فجئت فقلت هو يأكل، قال : ثم قال لي : اذهب فادع لي معاوية. قال: فجئت فقلت : هو يأكل. فقال: لا أشبع الله بطنه".

(٣٩) سير أعلام النبلاء ١٢٩/١٤.

(٤٠) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٧/١.

رجل وأنا مقيم سنة ثلاثين ومئتين، فحدثني عثمان بن عمرو بن الضحاك عنه أنه قال : إن لم يكن القرآن مخلوقا فمحا الله ما في صدري من القرآن، وكان من قراء القرآن، فنسي القرآن، حتى يقال له قل : بسم الله الرحمن الرحيم فيقول: معروف معروف ولا يتكلم به" [٤١]. وقال محمد بن داود الفوعي : "حلفت أن لا أكتب إلا عمن يقول : الإيمان قول وعمل، فأتيت إبراهيم ابن يوسف فأخبرته فقال : أكتب عني فإني أقول الإيمان قول وعمل... وكان يقول : القرآن كلام الله، من قال مخلوق فهو كافر ومن وقف فهو جهمي" [٤٢].

ولولا فضل الله على هذه الأمة ورحمته بها أن ثبتها على الحق ونصرها على الفتن ظاهرها وباطنها، لحدث لها ما حدث للأمم التي قبلها (اليهود والنصارى) الذين خاضوا في مثل هذه القضايا الغيبية فحرفوا دينهم وتفرقوا طرائق قددا، ففرق الله شملهم وشتت سعيهم. لكنها أمة الإسلام لا تجتمع على ضلالة، مدحها الله تعالى في القرآن : [**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ**] {آل عمران:١١٠} . وهذا أبو حاتم الرازي أحد جنود هذه الأمة يحسم الأمر في هذه المسألة فيقول : "مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ρ وأصحابه والتابعين والتمسك بمذهب أهل الأثر مثل الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد[٤٣]. ولزوم الكتاب والسنة، ونعتقد أن الله Y على عرشه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأن الإيمان يزيد وينقص، ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض وبالمساءلة في القبر، وبالشفاعة، ونترحم على جميع الصحابة" [٤٤] .

لقد كان للفرق الكلامية أثر سلبي على السنة فقد عطلوا الكثير من الأحاديث باتخاذهم موقفا عدائيا من عدد من الصحابة ومنعوا أتباعهم من الأخذ بهذه الأحاديث .

٤- القصاصون والشحاذون :

وهم قوم اتخذوا الوضع صناعة ومكسبا جراءة على الله ورسوله، حتى إن أحدهم ليسهر عامة ليله في وضع الحديث وتحبيره وإتقانه، ومنهم جماعة ادعوا التعمير الخارق للعادة، فقالوا في القرن الثالث والرابع أنهم أدركوا النبي ρ أو أحد الصحابة، ليقبل الناس عليهم ويجلوهم ويكرموهم، قصد الحصول على ما عندهم من علو في الرواية، منهم : دينار الحبشي الذي حدث سنة ٢٤٠هـ عن أنس بن مالك بنحو مائة حديث كلها موضوعة، وقال إنه خادمه [٤٥] . وكانت مجالس هؤلاء القصاصين تعرف إقبالا منقطع النظير من قبل العامة الذين يجدون في الغرائب والمناكير والأكاذيب التي تتضمنها أحاديث أولئك متعة، خاصة في مجال الترغيب والترهيب، فتسيل معها دموع الجهلة منهم [٤٦] . ومن هذه الأحاديث الموضوعة التي كان يتداولها هؤلاء القصاصون والشحاذون ما أخرجه ابن حبان قال :

---

(٤١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥٩/٣-٢٦٠.

(٤٢) المرجع السابق ٦١/١١ .

(٤٣) القاسم بن سلام .

(٤٤) سير أعلام النبلاء ٢٦٠/١٣.

(٤٥) انظر : فتح المغيث للسخاوي ٢٤٩/١.

(٤٦) انظر : المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة ص : ٩٥.

"أنا إبراهيم بن عبد الواحد المعصوب ببلد الموصل قال : سمعت جعفر بن أبي عثمان يقول : صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد الرصافة فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا : أنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ρ : من قال لا إله إلا الله يخلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب وريشه من مرجان... وأخذ يقص نحوا من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد، وقال يحيى لأحمد : أنت حدثت بهذا ؟ فقال : والله ما سمعته قط إلا الساعة! فسكتوا حتى فرغ من قصصه وأخذ قطاعه ثم قصد ينظر بقيتها، فقال له يحيى بن معين : أن تعال، فجاء متوهما لنوال، فقال له يحيى : من حدثك بهذا ؟ قال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. فقال : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط في حديث رسول الله ρ ، فإن كان لابد والكذب فعلى غيرنا. فقال له القاص : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق وما تحققته إلا الساعة، فقال له : وكيف علمت أني أحمق ؟ فقال: كأن ليس في الدنيا أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين غيركما ! كتبت عن سبعة عشر أحمد ابن حنبل غير هذا. قال : فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم، فقام كالمستهزئ بهما" [٤٧] .

وذكر ابن حبان ما حدث له مع أحد هؤلاء القصاصين فقال : دخلت مدينة باجروان [٤٨]، فحضرت مسجد الجامع، فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب فقال: حدثنا أبو خليفة عن شعبة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قضى لمسلم حاجته فعل الله به كذا وكذا... وذكر كلاما طويلا، فلما فرغ دعوته فقلت له : من أين أنت ؟ قال من أهل بردعة، فقلت دخلت البصرة ؟ قال : لا، قلت : فهل رأيت أبا خليفة ؟ قال : لا، قلت : كيف تروي عنه وأنت لم تره ؟ ! فقال : إن المناقشة معنا من قلة المروءة، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، فكلما سمعت حديثا ضممته إلى هذا الإسناد، فقمت وتركته" [٤٩]. وذكر الحافظ الذهبي عن ابن حبان قال : أخبرني محمد بن المنذر حدثنا محمد ابن ادريس حدثنا مؤمل ابن يهاب عن يزيد بن هارون قال : كان بواسط رجل يروي عن أنس بن مالك أحرفا، ثم قيل إنه أخرج كتابا عن أنس فأتيناه فقلنا له : هل عندك من شيء من تلك الأحرف ؟ فقال : نعم عندي كتاب عن أنس، فقلنا : أخرجه، فأخرجه فنظرنا فيه فإذا هي أحاديث شريك بن عبد الله، فجعل يقول : حدثنا أنس، فقلنا : هذه أحاديث شريك. فقال : صدقتم : حدثنا أنس بن مالك عن شريك، قال : فأفسد علينا تلك الأحرف التي سمعناها منه وقمنا عنه" [٥٠] .

٥- المتصوفة والزهاد والصلحاء :

عمل المتصوفة السنيون على تأسيس مبدأ "الولاية" شرعا، وذلك بالتماس سند لها من الكتاب والسنة، فلجؤوا إلى التأويل على نطاق واسع للآيات القرآنية بما يدعم مبدأهم، كما أولوا أحاديث ووضعوا أخرى انتصارا لمذهبهم، فمن الآيات التي أولوها قوله تعالى : لا [**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا**

---

(٤٧) المجروحين من المحدثين ٧١/١.

(٤٨) قرية من ديار مضر بالجزيرة، و قيل مدينة قرب شروان. انظر: معجم البلدان للحموي ص: ٢٤.

(٤٩) المجروحين من المحدثين ٧٢/١.

(٥٠) سير أعلام النبلاء ٢٥٩/١٣.

هُمْ يَحْزَنُونَ] {يونس:٦٢} . فحملوا هذه الآية جميع المعاني التي يتضمنها مذهبهم. وقالوا بالمساواة بين الولاية والنبوة، وأن الأولياء معصومون من الكبائر والصغائر، وتكلموا عن كرامات الأولياء وأنها بمثابة المعجزات، ومستندهم في كل ذلك الأحاديث التي وضعوها أو أولوها خطأ ليدعموا بها اتجاههم الفكري والمذهبي.

والمقام لا يسمح لنا بالخوض في الفكر الصوفي بتفصيل، إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه في هذا الباب أن الوضع والتأويل للأحاديث قد كثر في صفوفهم، واستمر العمل عندهم وعند أتباعهم بهذه الأحاديث، إذ نجد الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي (٥٦٠هـ-٦٣٨هـ) يدعم أفكاره الفلسفية الصوفية بهذه الأحاديث الموضوعة كحديث : "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين"، وهو حديث موضوع لا أصل له. وذهب إلى أن الولي يستطيع تصحيح الحديث النبوي مع النبي ρ نفسه بصورة مباشرة ودونما حاجة إلى إسناد، يقول ابن عربي في هذا الموضوع : "ورب حديث يكون صحيحا من طرق رواته يحصل لهذا الكاشف الذي عاين هذا المظهر، فيسأل النبي ρ عن هذا الحديث الصحيح فأنكره النبي وقال له : لم أقله ولا حكمت به. فيعلم "الولي" ضعفه فيترك العمل به عن بينة من ربه" [٥١] . وهذا الصنف من الأولياء يسميهم ابن عربي "أنبياء الأولياء" وهم حسب زعمه وميوله الفلسفي، يستطيعون الأخذ عن جبريل وعن النبي محمد ρ مباشرة، بالهمة والعلم من غير معلم من المخلوقين، وهذا في نظره هو معنى وراثة النبوة، وهي من خصائص أنبياء الأولياء التي تميزهم عن غيرهم. فمثل هؤلاء يحفظون الشريعة الصحيحة التي لاشك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة ممن اتبعهم، فهم أعلم الناس بالشرع، حسب زعمه، ويضيف : "... وهؤلاء لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم، بل يجب عليهم الكتم لمقامهم" [٥٢] .وقد انتشرت هذه المذاهب الصوفية ذات النزعة الفلسفية، وأصبح لها طرق وأتباع كثر، وكان لنظرياتهم الصوفية هذه أثر سلبي في فهم السنة النبوية، خاصة في العصور المتأخرة، فقد سطع نجمهم وأصبح لشيوخهم أضرحة تزار وطرق تلقن، وانتشرت الأسطورة والخرافة في صفوفهم على نطاق واسع.

أما الزهاد والصلحاء، فقد كثر وضع الحديث في صفوفهم، إذ حملهم تدينهم الناشئ عن جهل على وضع أحاديث في الترغيب والترهيب، ليحثوا الناس بزعمهم على الخير وينهوهم عن الشر، وقد جوز ذلك الكرامية، [٥٣] وادعوا أن من يكذب لرسول الله ρ ينال الأجر ويكون من المدافعين عن هذا الدين، وقد اشتهر من هؤلاء غلام خليل الذي كان زاهدا في الحياة، ووضع كثيرا من الأحاديث في الرقائق، فلما سئل عنها قال : وضعناها لنرقق قلوب العامة، ولما توفي هذا الوضاع وكان له أتباع كثر، أقفلت مدينة السلام أسواقها، ودفن بالبصرة وأقيمت عليه قبة [٥٤] . كما كثر في صفوفهم وضع

---

(٥١) انظر كتابه : الفتوحات المكية ص : ٦١.

(٥٢) المصدر السابقً : ص : ٦١

(٥٣) وهم أصحاب محمد بن كرام (ت ٢٥٥هـ)، أصله من نواحي سجستان وكان يتعبد ويتقشف، وكان يقول : الإيمان قول فمن أقر بلسانه فهو مؤمن حقا وإن اعتقد بقلبه الكفر... في أشياء من هذا القبيل، فنفي إلى نيسابور فافتتن به جماعة لتزهده، فنفي فمضى إلى بيت المقدس وكان يجالس الوضاعين فيأخذ عنهم.

(٥٤) الموضوعات لابن الجوزي ١/٤٠.

الأحاديث في فضائل السور ترغيبا في قراءتها. وقد سأل عبد الرحمن بن مهدي ميسرة بن عبد ربه من أين جاء بأحاديث من قرأ كذا فله كذا ؟ فأجابه : وضعتها أرغب الناس فيها [٥٥] . ووضع أبو عصمة بن أبي مريم المعروف بنوح الجامع أحاديث كثيرة في سور القرآن، فلما سئل عن ذلك قال : رأيت الناس اشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فأردت أن أرغب الناس في القرآن.

لقد كثر الوضع في صفوف هذه الفئة، وأحاديثها الموضوعة في القرآن الكريم لا تزال شريحة واسعة من العامة تؤمن بها حتى اليوم.

ولعل زهدهم في الحياة الدنيا واعتكافهم في المساجد أعطى للناس انطباعا حميدا عنهم، فصدقوهم وعملوا بأحاديثهم. قال يحيى بن سعيد القطان : "ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن نسب إلى الخير" [٥٦] . لقد خفي على كثير من الناس أمرهم، فلم يصدقوا أنهم كذابون أفاكون، لذا كانت أحاديثهم تحفظ وتروى وتعرف انتشارا ورواجا بين العامة.

٦- التعصب المذهبي :

لعبت العصبية المذهبية دورا بارزا في التزيد على النبي ρ ، وإشعال نار الفتنة بين المسلمين، والتشويش على المدارس الفقهية التي كان لأئمتها أيادي بيضاء على السنة النبوية الذين عكفوا على دراستها متنا وإسنادا، واجتهدوا واستنبطوا الأحكام ووضعوا المصنفات العظام. وقد روج لهذه العصبية أتباع محمد بن كرام، الذين وضعوا أحاديث كثيرة في فضله، من ذلك ما أسندوه إلى الرسول ρ : "يجيء آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام يحيي السنة والجماعة، هجرته من خراسان إلى بيت المقدس كهجرتي من مكة إلى المدينة" [٥٧] .

وكان المتعصبون للمذاهب الفقهية يضعون الأحاديث في مدح إمام مذهبهم وذم أئمة المذاهب الأخرى، كحديث وضعه أحد المتعصبين لمذهب أبي حنيفة، قال : "قال رسول الله ρ : يكون في أمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة وهو سراج أمتي". قال الخطيب : هذا حديث موضوع تفرد بروايته البورقي. قال أبو عبد الله الحاكم : "وضع البورقي من المناكير على الثقات ما لا يحصى وأفحشها هذا الحديث، هكذا حدث به في بلاد خراسان، ثم حدث به في العراق بإسناد آخر وزاد فيه، وسيكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس فتنته على أمتي أضر من إبليس" [٥٨] . قال ابن الجوزي : اعلم أن من شم ريح العلم يعلم أن هذه في مدح أبي حنيفة وابن كرام وذم الشافعي ونحوها موضوعة، غير أنا نخاف من عامي جاهل يقول : هي في كتاب بإسناد، فلهذا يقدح رواتها" [٥٩] . وقال أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي (ت ٦٥٦هـ) دفين الإسكندرية، استجاز بعض فقهاء أهل الرأي نسبة الحكم الذي دل عليه القياس إلى رسول الله ρ نسبة قولية، فيقول في ذلك : قال رسول الله ρ

---

(٥٥) المرجع السابق ٤٠/١.

(٥٦) المجروحين لابن حبان ٦٧/١.

(٥٧) الموضوعات لابن الجوزي ٥٠/٢.

(٥٨) الموضوعات لابن الجوزي ٤٨/٢-٤٩.

(٥٩) المرجع السابق ٥٠/٢.

كذا" [٦٠] . ومن ذلك حديث : "إن رسول الله ρ لم يجز طلاق الغضبان". وضعه سهل بن أبي الصلت السراج، وحديث عن أنس : "رأيت النبي ρ يمس لحيته في الصلاة"، وضعه المنذر بن زياد الطائي [٦١]. وبلغ التعصب بأصبغ بن خليل شيخ قرطبة ومفتيها أن وضع حديثا في ترك رفع اليدين في الصلاة بعد الإحرام، قال ابن الفرضي:" كان متعصبا لرأي أصحاب مالك و لابن القاسم من بينهم أن افتعل حديثا في ترك رفع اليدين في الصلاة بعد الإحرام، ووقف الناس على كذبه فيه" [٦٢] .

قال الحافظ ابن حجر وغيره : وهؤلاء الضرر بهم أشد لدقة استخراج ذلك إلا من النقاد [٦٣] .

وكان للعصبية والشعوبية آثار غير حميدة على الساحة الإسلامية، فقد برز عدد من المتعصبين للقبيلة أو العرق أو القطر، وأثار هذه العصبية أعداء الدين،خاصة من العجم الذين قصدوا ضرب وحدة الإسلام القائمة على التآخي والتآلف والمساواة بين الأجناس، وحسر التميز في التقوى، ولم يجدوا من مدخل إليه إلا عبر السنة النبوية، فتسللوا منها واضعين عددا ليس باليسير من الأحاديث، أشعلوا بها نار الفتنة بين المسلمين. ومن هذه الأحاديث التي رفعوها إلى النبي ρ حديث : "رأى أبو هريرة رجلا فأعجبته هيأته فقال : ممن أنت ؟ قال : من النبط. قال : تنح عني فإني سمعت رسول الله ρ يقول : قتلة الأنبياء وأعوان الظلمة" [٦٤] . كما وضعوا أحاديث كثيرة في فضل الأقطار والمدن، وفضل الإقامة والرباط بها كالأحاديث الموضوعة في فضل الإسكندرية وقزوين والبصرة، بل إن حديث : "من دخل عكا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" اشتهر على الألسنة حتى ذكره صاحب "مختار الصحاح" في باب فضل عكا.

أما أصحاب المصالح الخاصة وأصحاب الأهواء ومحبو الرياسة والتقرب إلى السلطان، فقد وحدهم هدف واحد : وضع الأحاديث على النبي ρ بما يناسب مقاصدهم، كغياث بن إبراهيم النخعي الذي دخل على الخليفة المهدي فوجد عنده حماما، وكان مولعا به، فزاد غياث لفظ الجناح في حديث : "لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر أو جناح" ليزين له فعله [٦٥] .

كما أقدم عدد من الكذابين والوضاعين على تحريف الأحاديث بطريقتهم، كأن يضعوا للمتون الواهية الضعيفة أسانيد صحيحة مشهورة، أو يركبون إسنادا غير إسناده ليغرب فيطلب. قال أبو عبد الله الحاكم : "من هؤلاء اليسع بن أبي حية، كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن عروة، فيركب حديث هذا على حديث ذاك لتستغرب تلك الأحاديث بتلك الأسانيد" [٦٦] . ومن الذين كانوا يرون الموضوعات عن الأثبات : عثمان بن مطر الشيباني، ومن الموضوعات التي رواها: حدث عن ثابت البناني عن

---

(٦٠) تنزيه الشريعة لابن عراق ١١/١.

(٦١) ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي ٢٣٩/٢.

(٦٢) انظر : تاريخ ابن الفرضي ١/ ٩٣ .

(٦٣) فتح المغيث للسخاوي ٢٤٥/١.

(٦٤) انظر : الموضوعات لابن الجوزي ٥٢/١-٧٠. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني ٤٢٨-٤٣٨.

(٦٥) الموضوعات لابن الجوزي ٤٢/١.

(٦٦) تنزيه الشريعة لابن عراق ١٥/١.

أنس مرفوعا : "اتخذوا الحمام المقصصة في بيوتكم تلهو الشياطين بها دون صبيانكم" [٦٧] .

المبحث الثاني

أسباب غير مقصودة

١- الاختلاط :

وهو التباس الأمر على الراوي فلا يعقل ما يحدث به، فيخلط الصحيح من الحديث بسقيمه. ويحدث هذا الأمر للمحدث غالبا بسبب تقدم العمر، كما يحدث لمن كان يحدث من كتبه، فلما ذهبت كتبه لطارئ من الطوارئ التبس عليه فوقع في الخطأ، كابن لهيعة (ت ١٧٤هـ) الذي احترقت كتبه فرجع إلى حفظه فساء. فيلتبس الأمر على المتلقي أيضا كالفقيه الذي يشتغل على هذه الأحاديث، فيقع الإنحراف في الحكم المبني على هذه الأحاديث، لذا كان أئمة الحديث ونقاده على علم بخطورة هذا الأمر، فقاموا بإحصاء المختلطين من الرواة الثقات،وحددوا وقت اختلاطهم، فمن سمع منهم قبل الاختلاط قبل حديثه، ومن سمع منهم بعد ذلك يطرح حديثه. ومن الكتب التي أحصت الرواة المختلطين : تحفة المستفيد لأبي بكر محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤هـ)، والحافظ صلاح الدين العلائي (ت ٧٦١هـ)، وقد ذيل عليه الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ). وللبرهان الحلبي ابراهيم ابن محمد سبط ابن العجمي (ت ٨٤١هـ) جزء نافع في هذا الموضوع سماه "الاغتباط بما رمي بالاختلاط". وكان الاختلاط قد ظهر في أواخر عصر التابعين في بداية القرن الثاني الهجري، فكان منهم رواة يرفعون الموقوف والمرسل.

٢- فحش الغلط وكثرة الغفلة في رواية الحديث :

وذلك كأن يحدث الراوي فيدخل في حديثه ما ليس منه سهوا أو غفلة، ولا يجد من ينبهه إلى خطئه، فيسمع منه الناس ذلك فيعملون بحديثه باعتباره ثقة عرف بالصدق والأمانة في الرواية. ولم يسلم كثير من رواة الحديث من الخطأ والنسيان، من ذلك ما ذكره الإمام البخاري من أمر شيخه "الداخلي"، فقال : "فجعلت اختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس : سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم، فقلت له : إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم، فانتهرني، فقلت له : ارجع إلى الأصل فدخل فنظر فيه، ثم خرج فقال لي : كيف هو يا غلام ؟ قلت : هو الزبير ابن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، وقال : صدقت" [٦٨] . وقد ترك علماء الحديث أحاديث من كثر خطؤه. قال ابن حبان : "منهم من كثر خطؤه وكاد أن يقلب صوابه، فاستحق الترك من أجله، وإن كان ثقة في نفسه صدوقا في روايته، لأن العدل إذا ظهر عليه أكثر أمارات الجرح استحق الترك" [٦٩] . فكثرة الغلط تدفع الراوي للتحديث بالمناكير والشواذ من الأحاديث.

٣- الوهم :

أن يقع للراوي وهم في رواية الحديث، كأن يدخل حديثا في حديث، أو يدرج كلاما سمعه

---

(٦٧) ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي ٥٤/٣.

(٦٨) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤/٢.

(٦٩) المجروحين لابن حبان ٧٦/١.

ضمن الحديث وهو ليس منه، أو يرفع المرسل ويصل المنقطع، أو يشتبه عليه الضعيف بالثقة، وقد كثر في هذا النوع من الرواة التدليس، وكثيرا ما كان الوضاعون يستغلون مثل هؤلاء الرواة، فيحضرون حلقاتهم العلمية ويسمعون منهم الأحاديث، ثم يضعون عليهم أخرى فيلقنوها لهم، فيحدث بها الشيخ متوهما أنها أحاديثه، فالشيخ في نفسه ثقة، إلا أن حديثه غير صحيح [٧٠] . بمعنى أنه أصبح يقبل التلقين الباطل.

٤- سوء الحفظ :

ويقع في الغالب لمن انصرف للعبادة كلية، ولم يعد يستوعب ما سمعه من حديث في حلقات الدرس لمن أدرك من الصحابة أو من كبار التابعين.. فيقتصر من ذلك على ما يتفقه به في خاصة نفسه دون قصد بث العلم ونشره. فإذا حدث بعد ذلك أدى مسموعه على غير الوجه المشترط عند أرباب الرواية، وغالبا ما يحدثون بالمعنى على حسب ما فهموه من اللفظ سواء كان مطابقا للواقع أو غير مطابق، فيقع انحراف في فهم الحديث بالنسبة للسامع، وغيرها من خوارم الضبط ومجرحاته، كالتدليس والشذوذ والتساهل في حال الأداء والنوم أثناء السماع [٧١]... وقد محص أئمة الحديث ونقاده روايات هؤلاء ونخلوها حرفا حرفا.

الفصل الثاني

منهج المحدثين في تقويم الانحراف في فهم السنة النبوية

كانت عناية علماء الحديث برواته وفحص أحوالهم على وجه يطمئن الباحث إلى نتيجته أمرا ضروريا، يوجبه الاحتياط في الدين ويقتضيه حفظ الشريعة من تلبيس الزائغين وافتراء الكاذبين، مقتفين في ذلك آثار الرسول ρ ، الذي حض أمته على تبليغ حديثه كما سمعوه منه، وحذرهم من الكذب عليه، فوضع لهم الأسس وحد لهم الحدود وأبان لهم جواز التحري في الأخبار، قال الإمام مسلم : "وإنما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار من أمر الدين إنما تأتي بتحليل أو تحريم أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثما غاشا لعوام المسلمين، إذ لا يؤمن على من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها" [٧٢] .

وكان أبو بكر الصديق τ أول من فتح باب التثبت من ضبط الراوي والتأكد من استيعابه للخبر وأدائه على وجهه، تقريرا لحرمة الحديث وترسيخا لما يجب له من تحر ويقظة، وتنبيها منه للأمة على ما يجب أن تسلكه في تلقي أخبار نبيها وأحاديثه، فقد شهد عنده المغيرة بن شعبة أن رسول الله ρ

---

(٧٠) المرجع السابق ٧٧/١.

(٧١) انظر في هذا الباب : الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص : ٣٨٠. مقدمة ابن الصلاح مع التقييد والإيضاح ص : ١٦٦. فتح المغيث للسخاوي ١٦/٢، تدريب الراوي للسيوطي ص : ٢٣٩.

(٧٢) مقدمة مسلم ١٢٣/١.

أعطى الجدة السدس، فأظهر عدم اقتناع بذلك وسأله: هل معك أحد ؟ فشهد محمد [٧٣] بن مسلمة الأنصاري بمثل ذلك، فأنفذه لها [٧٤] . ثم كان عمر ابن الخطاب τ في شدة تحريه وصرامة دقته وتحرجه هو الذي سن للمحدثين التثبت في النقل بالمعنى الذي مشوا عليه وانتهجوه في نقدهم للأسانيد والمتون، وذلك حتى لا يقع انحراف في فهم سنة الرسول ρ . وعلى هذا النهج سار باقي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، مع التأكيد على عدالتهم ونزاهتهم [٧٥] .

وازداد التحري عن الرجال بظهور الفتن واتساع رقعة الكذب والافتراء على الرسول ρ ، قال ابن سرين : "لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ بحديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ بحديثهم"[٧٦] . فكانوا يعتبرون العلم بحال الرواة وناقلي الأخبار نصف العلم. قال علي بن المديني : "معرفة الرجال نصف العلم". وكان شعبة بن الحجاج يأتي العلماء ويقول لهم : "تعالوا نغتاب في الله عز وجل،وكان يقول لطلاب العلم : ليس هذا يوم حديث، اليوم يوم غيبة تعالوا حتى نغتاب الكذابين" [٧٧] . فأصبح الإسناد من خصائص الأمة المحمدية، قال ابن المبارك : "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"، وقال أيضا : "بيننا وبين القوم القوائم"، [٧٨] يعني الإسناد، به واجه أئمة الحديث أهل الافتراء والكذب. وإذا كنا نفخر بهذا السند، وأنه الطريق المتصل إلى صاحب الشريعة محمد ρ ، فإن رواة الحديث على مر العصور يعدون بعشرات الآلاف، وبلاد الإسلام شاسعة رحبة، والمطلوب من الناقد المتخصص في هذا الفن أن يدرس حياة الراوي في جميع مراحلها من الولادة إلى الوفاة، فإن أول ما يستفسر عنه الناقد تاريخ ولادة الراوي والسن الذي بدأ فيه التحمل، ثم يبحث عن شيوخه وصلته بهم، وما أكثر سفر الرواة وتجوالهم، قال أبو حاتم في هذا الصدد : "أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين، أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ"، [٧٩] قال الحافظ الذهبي : "مسافة ذلك نحو أربعة أشهر سير الجادة" [٨٠] . ولا يكتفي بذلك حتى يبذل مجهوده للتعرف على ما يخفيه من نحلة أو مذهب، ولا يعتبر هذا الاستقصاء كاملا عندهم حتى يقف الباحث على تفاصيله في عين المكان ليخبر عن مشاهدة وتحقيق، ومع بعد المسافة وصعوبة الوسائل آنذاك ندرك مدى المشاق التي تحملها علماء الحديث – مسلحين بالصبر ونكران الذات– ليحفظوا لنا سنة نبينا سالمة والشريعة نقية خالصة كما بلغها لنا رسولنا ρ عن رب العزة.

---

(٧٣) هو محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي الحارث أبو عبد الله : من كبار الصحابة شهد بدرا والمشاهد كلها، استوطن المدينة واعتزل الفتنة مات سنة ٧٧هـ. الإصابة ٣٨٣/٣.

(٧٤) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ٢/١.

(٧٥) مقدمة صحيح مسلم ١٢/١.

(٧٦) مقدمة صحيح مسلم ١٢/١.

(٧٧) انظر: تاريخ بغداد ٢٥٦/٩

(٧٨) انظر: مقدمة صحيح مسلم ١٢/١

(٧٩) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ٢٥٥/١٤ .

(٨٠) المرجع السابق ٢٥٥/١٤.

طريقتهم في تحري الأحاديث وضبطها :

لقد جعلوا متن الحديث غاية، ثم بدأوا في البحث عن الشيخ الذي حدثهم بالحديث يختبرون عدالته وضبطه، ويلاحظون هيأته وسمته، ثم يستعلمون عن ولادته وابتداء طلبه وسلوكه واتصاله بشيوخه، قال ابراهيم النخعي : ""كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى هديه وسمته وصلاته ثم أخذوا عنه" [٨١] . وقال الحسن بن الصلاح : "كنا إذا كتبنا عن الرجل سألنا عنه حتى يقال : أتريدون أن تزوجوه؟" [٨٢] . وقال شعبة بن الحجاج : "سمعت من طلحة بن مصرف حديثا واحدا، وكنت كلما مررت به سألته عنه، فقيل له : لم يا أبا بسطام ؟ قال : أردت أن أنظر إلى حفظه، فإن غير شيئا تركته" [٨٣] . ثم إذا انتهوا من الراوي المباشر بحثا وتنقيبا انتقلوا إلى شيخه، فإن كان حيا بنفس البلد أو قريبا منه ذهبوا إليه، وإن كان غائبا شدوا إليه الرحلة وتقصوا أمره، وإن كان قد مات انتقلوا إلى بلدته ليقفوا على أحواله هناك.. وهكذا إلى أن يصلوا إلى الصحابي راوي الحديث. وروي عن مؤمل بن إسماعيل ومدى دقته في تحري مصدر الحديث أنه سمع من شيخ حديثا لأبي بن كعب في فضائل القرآن، فسأله عمن سمعه فقال : حدثني به شيخ، قال مؤمل: فقلت للشيخ من حدثك؟ قال : حدثني رجل بالمدائن وهو حي، فصرت إليه، فقال : حدثني شيخ بالبصرة، فصرت إليه، فقال : حدثني شيخ بعبدان، فصرت إليه فأدخلني بيتا فإذا قوم من المتصوفة ومعهم شيخ فقال : هذا الشيخ حدثني، فقلت : يا شيخ من حدثك ؟ قال : لم يحدثن أحد، ولكن رأينا الناس رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن" [٨٤] . والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب الحديث والمصطلح والرجال والتاريخ، وقد قال عبد الله بن المبارك : ولو خيرت بين أن أدخل الجنة وبين أن ألقى عبد الله [٨٥] بن محرز لاخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة، فلما رأيته كانت بعرة أحب إلي منه" [٨٦] . لذا لم يكن للزهاد والصلحاء والمعتنين بشؤون أنفسهم ومحسني الظن بالناس مجال في هذا العلم، بل ولا في علوم الرواية والإسناد بصفة عامة. وقد قال الإمام مالك رحمه الله : "لقد أدركت بالمدينة أقواما لو استسقى بهم المطر لسقوا، وقد سمعوا من العلم والحديث شيئا كثيرا، وما أخذت عن واحد منهم، وذلك أنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن يحتاج الرجل معه تقى وورع وصيانة وإتقان وعلم"، وقال أيضا : "لقد أدركت سبعين ممن يحدث : قال فلان قال رسول الله ρ ، عند هذه الأساطين – يعني مسجد رسول الله ρ فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أوتمن على بيت المال لكان أمينا، لأنهم لم يكونوا من أهل الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه" [٨٧] .

---

(٨١) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ٤٧/١.

(٨٢) الكفاية في علم الرواية للحافظ الخطيب البغدادي ص : ٩٣.

(٨٣) المرجع السابق، ص: ١٨٥.

(٨٤) تدريب الراوي للحافظ السيوطي ص : ١٤٠.

(٨٥) قال البخاري : منكر الحديث، أنظر : الضعفاء الصغير ص : ٦٨ والكبير ٢١٢/٥ للإمام البخاري.

(٨٦) مقدمة صحيح مسلم ١٤/١.

(٨٧) انظر : التمهيد لابن عبد البر ٦٧/١.

ومثل هذا التدقيق في التحقق والجلد في التثبت والتحري، أضفى على علماء الحديث صبغة الإتقان والضبط والأخذ بالحظ الأوفر من النباهة والتيقظ واستخدام مقاييس النقد الصحيحة، حتى قال الشعبي : "لو أصبت تسعا وتسعين مرة وأخطأت مرة لعدوا علي تلك الواحدة" (٨٨) . وفي أمثال هؤلاء يقول ابن حبان : "أمعنوا في الحفظ والكتابة وأفرطوا في الرحلة وواظبوا على السنن والمذاكرة والتصنيف والمدارسة.. حتى إن أحدهم لو سئل عن عدد الأحرف في السنن لكل سنة منها عدها عدا ولو زيد فيها ألف أو واو لأخرجها" (٨٩) .

تبين حال الراوي وإظهار جرحه :

إن تبين حال الراوي وإظهار جرحة المجروح وإشاعتها، اعتبروه أمرا واجبا في الدين، والسكوت عنه وإخفاء حاله خيانة لله والرسول والأمة وكتم للعلم الذي من فعله ألجم بلجام من نار (٩٠) ، ولذلك لم يتورعوا حين سئلوا عن آبائهم وذويهم وأقرب المقربين إليهم، أن يبينوا حالهم، ويفصحوا عن جرحهم دون مراعاة لأي اعتبار، إلا النصيحة والدفاع عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال علي بن المديني لما سئل عن أبيه : سلوا عنه غيري. فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال : هو الدين إنه ضعيف (٩١) . وكان أبو داود يقول في ابنه : "إن ابني هذا كذاب" (٩٢). وكانت القواعد الأصولية تقتضي أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فدرء مفسدة الكذب على رسول الله ρ والخطأ في حديثه أو تحريفه المؤدي إلى فساد الدين وإدخال ما ليس منه فيه مقدم على ما يعتبر في الظاهر مصلحة، كحفظ عرض شخص أو التستر عليه. قال محمد بن بندار السباك الجرجاني لأحمد بن حنبل : "إنه ليشتد علي أن أقول : فلان ضعيف فلان كذاب، قال أحمد : إذا سكت أنت وسكت أنا، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم" (٩٣) . وقال عبد الرحمن ابن مهدي : "سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب فقالوا : أنشره فإنه دين" (٩٤) . بل كانوا يفضحون الكذابين والوضاعين على رؤوس الناس، ومن ذلك أن هارون الرشيد لما قدم المدينة أعظم أن يرتقي منبر رسول الله ρ ، وعليه قبا (٩٥) ومنطقه، فتطوع القاضي أبو البختري بذكر حديث فيه أن النبي ρ كان يلبسهما، وكان يحيى بن معين حاضرا فكذبه على رؤوس الناس (٩٦) . وقال عبد الرحمن ابن مهدي

---

(٨٨) أخرجه أبو داود في سننه ٧٣/١٠ كتاب العلم – باب كراهية منع العلم من حديث أبي هريرة عن النبي ρ قال :" من كتم علما تعلمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار" .

(٨٩) المجروحين من المحدثين ٤٤/١.

(٩٠) حلية الأولياء ٣١١/٤ – سير أعلام النبلاء ٢٩٦/٤ .

(٩١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص : ٦٦.

(٩٢) تذكرة الحفاظ ٧٦٢/٢ – ميزان الاعتدال ٤٣/٢ للذهبي.

(٩٣) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص : ٨٢.

(٩٤) مقدمة صحيح مسلم ٨٩/١.

(٩٥) بفتح القاف لفظ معرب :ثوب يلبس فوق الثياب و يتمنطق عليه. و المنطقة و النطاق : كل ما شد به وسطه . انظر اسان العرب مادة قبأ– منطق .

(٩٦) لسان الميزان للحافظ ابن حجر ٢٣٣/٦.

: "مررت مع شعبة برجل يحدث فقال : كذب والله، ولولا أنه لا يحل لي أن أسكت عنه لسكت" [٩٧] . لقد وفق الله أئمة الحديث وجهابذته وحذاقه لهذه المهمة وشرح صدورهم لها، قيل لابن المبارك : "هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال :يعيش لها الجهابذة". وقيل لابن معين : "أنظر إلى هذا الحديث الموضوع ؟ فقال : إن للعلم شبابا ينتقدون العلم" [٩٨] .

وكذلك كان، فقد انتقدوا الرجال واستقرءوا أحوالهم وأسماءهم وأنسابهم وولادتهم ووفياتهم وشيوخهم ومسموعاتهم... حتى إن منهم من تخصص في حديث بلد معين، كمن تخصص في حديث الشاميين. ومنهم من تخصص في حديث شيخ معين، كمن تخصص في حديث الزهري [٩٩] . وكان عملهم هذا بأمانة ونزاهة لا مثيل لها، تدل على مدى تجردهم وإخلاصهم للحق، ثم إن دقتهم في أحكامهم كانت عظيمة، بحيث أنهم لا يجرحون الراوي إلا إذا كثر منه رواية المناكير حتى تصير الغالب على حديثه، كما كانوا يتبينون ضعف الرواة هل كان ناشئا من قبل وهن في الدين أو سوء حفظ، أو تغيير واختلاط لكبر السن، ومتى حدث ذلك ؟ مع الأدب التام في ألفاظ الجرح التي لا تتعدى دائرة الأخلاق والعلم. ومن هؤلاء النقاد أذكر : شعبة بن الحجاج المتوفي سنة (١٦٠هـ) وسفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١هـ)، وعبد الله بن المبارك المتوفي سنة (١٦١هـ) وعبد الرحمن بن مهدي المتوفي سنة (١٩٨هـ)، ويحيى بن سعيد القطان المتوفي سنة (١٩٨هـ)، ويزيد بن هارون المتوفي سنة (٢٠٦هـ)، ويحيى بن معين المتوفي سنة (٢٣٣هـ)، وعلي بن المديني المتوفي سنة (٢٣٤هـ)، و أحمد بن حنبل المتوفي سنة (٢٤١هـ) محمد ين إسماعيل البخاري المتوفي سنة (٢٥٦هـ)، و أبو زرعة الرازي المتوفي سنة (٢٦٤هـ)، وأبو حاتم الرازي المتوفى سنة (٢٧٧هـ)... وغيرهم كثير. فظهرت عبارات الجرح والتعديل، وكان نقاد الحديث يفصلون في هذه العبارات ويضعون المراتب والمقاييس، تبعا لتكاثر الرواة وتنوع مراتبهم واستفحال الخطاء والتحريف وانتشار الكذب. فظهر علم الجرح والتعديل، بأسسه وقواعده ومصنفاته الكثيرة، التي حاصرت الوضاعين والكذابين وطوقتهم من كل جانب.

منهجهم في مصنفاتهم :

صنف علماء الحديث ونقاده مصنفات تفوق الحصر، كل مصنف من هذه المصنفات اختص في فن معين، أذكر منها : كتب الثقات، كتب الضعفاء والمتروكين، كتب الجرح والتعديل، كتب المجروحين، كتب المختلطين، كتب المدلسين، كتب الوهم والخطأ، كتب تاريخ الرواة، كتب العلل، كتب معرفة الرجال، كتب المؤتلف والمختلف من أسماء الرواة، كتب الوفيات، كتب الأسماء والكني... وغيرها من المصنفات.

المصنفات في الثقات : فرزوا فيها الثقات عن الكذابين، والمتقنين عن الوضاعين، والأثبات عن الضعفاء، فأفردوا فيها أسماء الثقات الذين تصح روايتهم، ورتبوها في مصنفات عديدة، بعدما تحروا

---

(٩٧) الكفاية في علم الرواية للحافظ الخطيب البغدادي ص :٨٨.

(٩٨) المرجع السابق، ص : ٣٧.

(٩٩) كان محمد بن يحيى الذهلي المتوفى سنة ٢٥٨هـ من الذين تخصصوا في حديث الزهري.

أحوالهم بدقة، فرتبوهم وفق مراتب ومقاييس قعدوا لها من قبل، كأن يقولوا مثلا : فلان ثقة ثقة، أو ثقة، أو قوي... إلخ. والمصنفات في هذا النوع كثيرة، وأحفلها : "ثقات ابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)".

المصنفات في الضعفاء والمتروكين : جمعوا فيها أسماء الذين لا تجوز الرواية عنهم من أصحاب المناكير والوضاعين والكذابين... والمصنفات فيها كثيرة، وأحسنها تصنيفا كتاب الكامل في الضعفاء والمتروكين لابن عدي (ت ٣٥٥هـ)، فقد نهج فيه نهجا خاصا، جمع بين رجال الحديث وبين علل الحديث فيذكر مع كل ترجمة حديثا أو أكثر من مناكير المترجم له، فكان كتاب تراجم و علل في نفس الوقت، هذا زيادة على استيعابه لكل من تكلم فيه و إن كان من رجال الصحيح.

المصنفات في الجرح والتعديل : وهي التي جمعت بين المجروحين والمعدلين، وصنف فيه الكثير، وأهم هذه المصنفات كتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ). فهو أغزرها فائدة وأوثقها صلة بنقد الرجال الذين عرفهم تاريخ الحديث.

المصنفات في تاريخ الرواة : جمعوا فيها تواريخ ولادة ووفاة الرواة ورجال الإسناد، وبينوا فيها كذلك مكانهم من الجرح والتعديل. وكتب تاريخ الرواة هي التي تحدد أوقات ولادة العلماء، وبدء سماعهم، وتاريخ وفاتهم، ليتبين منها تاريخ انقطاع الرواية، وكان سفيان الثوري يقول : "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ"، [١٠٠] ومثله قول حسان بن يزيد: "لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ، يقال للشيخ : سنة كم ولدت ؟ فإذا أقر بمولده عرف صدقه من كذبه" [١٠١] . وقال حفص بن غياث : "إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين"،[١٠٢] يعني احسبوا سنه وسن من كتب عنه، ويستفاد من هذا الفن في التأليف التفريق بين الضعفاء والثقات، ومعرفة ما في السند من انقطاع أو تدليس أو إرسال ظاهر أو خفي، للوقوف به على أن الراوي مثلا لم يعاصر من روى عنه، أو عاصره ولم يلقه، لكونه في غير بلده ولم يرحل إليه، وليست له إجازة [١٠٣]. وأحسن ما صنف في هذا الباب "كتاب التاريخ الكبير" للإمام البخاري (ت ٢٥٦هـ)، فهو عمدة هذا الشأن، دون فيه تاريخ الرواة وأخبارهم، وضم ما يقرب من أربعين ألف ترجمة بين ثقة وضعيف ورجل وامرأة.

المصنفات في المؤتلف والمختلف: وصلت دقة نقاد الحديث إلى إفراد مصنفات جمعوا فيها الأسماء المتفقة في الخط والمختلفة في اللفظ، والهدف من التصنيف في هذا الصنف من التآليف : ضبط الأسماء، وبيان كيفية النطق بها نطقا صحيحا، وغالبا ما تعرض لبيان تعديل وتجريح الذين يردون فيها. ولعل أبرز من صنف في هذا الفن الحافظ الدارقطني (ت ٣٨٥هـ) له كتاب "المؤتلف والمختلف" وهو حافل.

المصنفات في الطبقات : جمع طبقة وهم قوم تقاربوا في السن والإسناد، أو في الإسناد فقط، بأن يكون شيوخ هذا هم شيوخ الآخر، أو يقاربون شيوخه. فقسموا الصحابة على اثنتي عشرة طبقة، والتابعين على

---

(١٠٠) فتح المغيث للسخاوي ٢٨٣/٣.

(١٠١) المرجع السابق ٢٨٣/٣.

(١٠٢) المرجع السابق٢٨٣/٣ .

(١٠٣) فتح المغيث للسخاوي ٢٨٣/٣.

خمس عشرة طبقة.. وهكذا [١٠٤] . ومعرفة الطبقات أمر غاية في الأهمية بالنسبة للمحدث، لأنه يجنبه الوقوع في خلط اسمين متشابهين ومتفقين وهما من طبقتين مختلفتين. والتصنيف فيه كثير ومتنوع، فهناك طبقات المحدثين والفقهاء والمفسرين وأصحاب المذاهب... ومن بين هذه المصنفات أذكر "الطبقات" لابن سعد (ت ٢٣٠هـ) تلميذ الواقدي، وكتابه مفيد وحافل.

ولا يسع المجال لذكر كل ما صنف في هذا العلم، لكن نقاد الحديث وحذاقه لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة في علم الرجال إلا أحصوها، كما أن الكلام في الرجال لم يقتصر على الكتب المؤلفة فيه، بل إن الذين ألفوا في التاريخ العام والبلدان، أو في الحديث وعلله تكلموا في الرجال جرحا وتعديلا.

منهجهم في حفظ الحديث النبوي :

دفع حب علماء الحديث لسنة رسول الله ρ أن جندوا أنفسهم للذب عنها، مستعملين الحفظ كسلاح حاد لقطع دابر كل من تخول له نفسه المس بسنة رسول الله ρ ، فكانوا يحفظون الأحاديث الصحيحة، والأحاديث غير الصحيحة، بمتونها وأسانيدها وأسماء رجالها الضعفاء منهم والثقات، قال الإمام البخاري : "أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح" [١٠٥] . واختبر البخاري في الحفظ ببغداد، فقلبوا مائة حديث، جعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر، فعرضوها عليه، فرد متن كل حديث إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، [١٠٦] قال الحافظ ابن حجر معلقا على هذا المستوى العجيب في الحفظ : "وهنا يخضع للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب فإنه كان حافظا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه من مرة واحدة" [١٠٧] . وكان الإمام البخاري يقول في الحفظ : "لا أعلم شيئا أنفع للحفظ من همة الرجال ومداومة النظر"[١٠٨] . وعلى هذه الدرجة كان جل حفاظ السنة وحماتها، الذين سخرهم الله تعالى لحماية سنة رسوله الكريم. إلى هذا المستوى وصل حفظ وإتقان أئمة الحديث ونقاده، فظهرت المصنفات العظام في الحديث النبوي، كالصحاح : فأول من صنف في الصحيح المجرد الإمام البخاري، وضع كتابه "الجامع الصحيح" وفق شروط [١٠٩] ومنهاج علمي فريد، إلتزم فيه بتخريج الحديث الصحيح المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات، مع اتصال سنده، فكان أصح كتاب بعد كتاب الله، حتى قال عنه الحافظ أبو نصر السجزي : "أجمع أهل العلم على أن رجلا لو حلف بالطلاق أن جميع ما في كتاب البخاري مما روي عن النبي ρ قد صح عنه ورسول الله ρ قاله، ولاشك فيه أنه لا يحنث" [١١٠] . وحذا حذوه تلميذه الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ)، وقفا أثره، فصنف كتابه "المسند الصحيح" من ثلاثمائة ألف

---

(١٠٤) انظر: التقييد و الإيضاح ص:٤٤٣ .

(١٠٥) مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر ص : ٤٨٦.

(١٠٦) تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي ٢/٢٠-٢١.

(١٠٧) مقدمة فتح الباري لابن حجر ص : ٤٨٦.

(١٠٨) المصدر السابق ص : ٤٨٦ .

(١٠٩) انظر : شروط الأئمة الخمسة للحازمي ص : ٨٦ إلى ٨٨.

(١١٠) مقدمة ابن الصلاح ص : ١١.

حديث مسموعة، ونافسه في ذلك منافسة علمية شريفة لا حسد فيها ولا ضغينة، وبرزت هذه المنافسة بشدة في مسألة علو الإسناد، يقول شيخي الدكتور إبراهيم بن الصديق رحمه الله في هذا الموضوع : "ولا أستبعد أن الإمام مسلم وهو يحاول تلافي تعثرات شيخه في كتابه، أحس بغضاضة لنزول إسناده عنه، فعمل ما أمكنه على استدراك هذا النقص بأن يجتهد في البحث عن أسانيد لبعض الأحاديث التي أخرجها البخاري نازلة، تكون أعلى منها، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فإن هذا التنافس الحميد عاد على الأمة الإسلامية بفوائد لا تحصى في تصحيح السنة النبوية وتقويمها وتعدد طرقها، والحمد لله" [١١١] . كما ظهرت السنن والمسانيد والمعاجم والمستدركات والمستخرجات والشروحات.. فمن المحدثين من قصر همته على تدوين الحديث مطلقا ليحفظ لفظه وليستنبط له الحكم. ومنهم من أثبت الأحاديث في مسانيد رواتها كمسانيد الصحابة ويثبتون فيها ما روي عن كل صحابي على حدة. ومنهم من بوب كتابه على الأبواب الفقهية، ومنهم من صنف واجتهد في استخراج أحاديث تتضمن ألفاظا لغوية ومعاني مشكلة فوضع لها كتابا على حدة، على شرح الحديث وشرح غريبه وإعرابه ومعناه، ولم يتعرض لذكر الأحكام، ومنهم من أضاف إلى هذا ذكر الأحكام وآراء الفقهاء، واستمر هذا النهج قائما لقرون عديدة، على فترة من الزمن ينعم الله على هذه الأمة بحافظ أو حفاظ، يمحصون كتب الأقدمين، ويزيدون عليها، ويصححون أخطاءها أو يشرحون متونها، ويتتبعون علماء عصرهم فيمحصون رواياتهم.. وهكذا في كل عصر، لذلك كانت كتب المتأخرين أجدى على الباحث من كتب المتقدمين، خاصة في علم الجرح والتعديل، ذلك أنها أحاطت بما قاله المتقدمون في كتبهم المختلفة، وحكت الأقوال المتضاربة في الرجال، فأمكن بذلك الاطلاع على كثير من الأحكام الفاصلة، ومن ثم صحح المتأخرون وحسنوا وضعفوا أحاديث لم يسبق للمتقدمين فيها كلام، وإنما اكتفوا بذكرها بأسانيدها، أو نص أحدهم على حكم فيها نظرا لما علمه عن أحد رواتها، فلما اطلع المتأخرون على الأقوال المتعارضة في الرجال أمكنهم الترجيح فأصدروا حكما مغايرا، كما حققوا فيمن جرح ببدعة أو رمي بها من الرواة، فمحصوا تلك الكتب خاصة التي بها غلو وإسراف في تجريح الرجال [١١٢] .

وهكذا، ازدهرت السنة النبوية وبلغت أوجها، خاصة في القرون الثالث والرابع والخامس الهجري، وبازدهارها ازدهرت كل العلوم الشرعية بلا استثناء، وازدهرت المدارس الفقهية، واجتهد أئمتها في الوقائع والأحداث التي طرأت لهم وعرفها عصرهم، فقضوا وأفتوا وشرعوا عدة أحكام استنبطوها باجتهادهم من متون السنة النبوية المطهرة.

الفصل الثالث

أسباب الانحراف في فهم السنة النبوية في العصر الحديث

المبحث الأول : فترة الجمود الفكري والمعرفي :

مرت السنة النبوية بعد هذه الفترة الذهبية بفترة أخرى حالكة، عرفت بفترة الجمود الفكري

---

(١١١) مقالات ومحاضرات في الحديث الشريف وعلومه ص : ٣٦.

(١١٢) انظر : فتح المغيث للسخاوي ٣١٠/١.

والمعرفي، تعطل فيها العقل عن أداء دوره في فهم السنة واستنباط من متونها الأحكام، فتوقف الاجتهاد وساد التقليد، واتسعت رقعة الخرافة والأسطورة. كما عرفت هذه الحقبة تعصبا مذهبيا خطيرا، لعب الجهل بالسنة النبوية فيه دوره البارز.

١- توقف الاجتهاد وسيادة التقليد :

إن كتاب الله وسنة رسوله واللغة العربية، هي الركائز الثلاث التي قام عليها الإسلام وبنى حضارته، لذا نجد المسلمين الأوائل قد حرصوا على نشر هذه اللغة في البلاد المفتوحة، فحذقها الناس وأتقنوها، وكان حرصهم عليها شديدا، لأنها لغة الدين وجزء لا يتجزأ منه، حتى أن هذه اللغة ازدهرت على يد الأعاجم، كما ازدهرت على يدهم علوم الإسلام بفضلها. لكن هذه العناية باللغة العربية بدأت تضعف بعد القرن الثامن الهجري، خاصة في فترة الحكم العثماني، فقد أولت هذه الدولة اهتماما كبيرا للقوة العسكرية والسلطان، وانشغلت بالفتوحات، ولم تهتم باللغة العربية ولا بنشر العلم، فأهملت الجانب الفكري والمعرفي، فتوقف الاجتهاد، وتعذر استنباط الأحكام من السنة لمن لا يعرف هذه اللغة، واضطرب على المسلمين فهم الأحكام وتطبيقها، فانخفض المستوى الفكري والتشريعي في الدولة، فساد الأمة جمود فكري وتشريعي خطير واتسعت دائرة التقليد.

٢- التعصب المذهبي :

برز التعصب المذهبي وبلغ مداه في هذه الحقبة الحالكة من تاريخ الأمة الإسلامية، فبعد عصر الأئمة المجتهدين مؤسسي المدارس الفقهية، التي ساهمت في ازدهار دولة الإسلام، وواكبت تطورها، وبعد عصر تلاميذهم الذين ساروا على نهجهم، فتتبعوا صحة الدليل وبيان وجه الاستدلال والتفريع على الأحكام، وشرحوا المسائل ورجحوا الراجح على المرجوح... إلخ، ورثهم قوم أضاعوا الفقه بتعصبهم الأعمى لمذاهبهم، فانصرفت عنايتهم إلى تأييد مذهبهم بالإشادة بالأئمة وأصحاب المذاهب، فصرفهم ذلك عن الاهتمام بالسنة النبوية واستنباط من متونها الأحكام، وصار الواحد منهم لا يرجح من السنة إلا ما يوافق مذهبه، فانحصرت أبحاثهم في مذاهبهم، وتقاعسوا عن الاجتهاد، فأصبح همهم تقليد المسائل الفقهية دون تبصر، وبلغ تقليدهم أن قالوا : كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ. وجعلوا تقليد المذاهب التي ينتمون إليها فرضا على المسلم، وحرموا الاجتهاد على المسلمين. فعرف الفقه في هذه الحقبة انحطاطا خطيرا، وكان سببا رئيسا في انحطاط المسلمين وزوال دولتهم. وقد بلغ جهل الفقهاء في هذه الحقبة أن وقفوا جامدين أمام كل جديد، فكثرت الفتوى بتحريم التقنيات الجديدة التي عرفتها أوربا كالمطابع والهاتف، فحرموا طبع القرآن الكريم... ! إلى أن صار الفقه معزولا عن المجال التشريعي داخل المجتمع الإسلامي... وجاء الاحتلال الأوربي ليقضي على البقية الباقية منه، ويستبدله بالقوانين الوضعية، ويقفل باب تعلمه وتعليمه في وجه المسلمين، فلم يبق له أساس في المدارس إلى اليوم.

٣- التصوف والزهد :

برز المتصوفة والزهاد على الساحة الفكرية الإسلامية وأمسكوا بزمامها، وأصبحوا خلال هذه الحقبة هم مصدر العلم الشرعي والفتوى، فعظم شأنهم بين الناس في طول بلاد الإسلام وعرضها،

وأصبح لهم طرق وأتباع وأضرحة يشد إليها الرحال، ونشطت الخرافة في صفوفهم مقتحمة ميدان الأفكار والعقائد.. لتعم المجتمع الإسلامي، فكانت الآفة العظمى التي عرفها مجتمع هذا العصر واستسلم لها وآمن بها حتى أضحت جزءا لا يتجزأ من حياته وتراثه الفكري والمعرفي، [١١٣] واندرجت ضمن سجله الثقافي، بل وضمن بنيته الدينية والتشريعية. فقد اكتسحت الأصول الدينية في العقيدة الإسلامية وبدأت تحل محلها على حين غفلة من هذا المجتمع الغارق في الجمود. وهكذا أثر الفكر الصوفي على الأمة، فصار الفهم السائد للإسلام فهما روحيا أكثر منه فهما فكريا وسياسيا وتشريعيا، فأحدثوا في الدين ما ليس منه كزيارة الأضرحة والاستغاثة بأصحابها والسجود لها والذبح عندها... وغيرها من المنكرات التي توقع الإنسان في الشرك. لقد ضعفت همم المسلمين في تحصيل العلم والبحث فيه، فعمي عليهم فهم الكتاب والسنة، وتوقفت الرحلة العلمية لطلب العلم ونشره بين أقطار بلاد المسلمين، وتقوقعت الشعوب الإسلامية على نفسها، مستسلمة لثقافة الزهد والتقشف المحشوة بالخرافة والأسطورة. وزاد من عزلة المسلمين سقوط عدد من الثغور الإسلامية في يد الأوربيين، فانشغلوا بالجهاد والدفاع ومقاومة عدو شرس دائم التوثب، خاصة بعد سقوط الأندلس تلك المنارة العلمية التي أنارت الساحة الفكرية الإسلامية لقرون عديدة.

المبحث الثاني : فترة الانفتاح على الثقافة الغربية :

١- مخلفات الاستعمار الثقافية :

عرفت أوربا ثورة علمية وفكرية شاملة، أحدثها مفكروها وفلاسفتها وفق منهج فكري معين. فنشأت حركات متعددة كان لها أثر في إحداث آراء جديدة على الصعيد الفكري والسياسي والعلمي مما أدى إلى انقلاب عام في الحياة الأوربية، وساهمت الثورة الصناعية في هذا التغيير بشكل كبير. فرجحت كفة العالم الأوربي على العالم الإسلامي، الذي وقف جامدا وحائرا أمام هذا التقدم العلمي والفكري للدول الأوربية. ثم سرعان ما استولت أوربا على بلاد الإسلام، ووجدت المناخ به ملائما لنشر لغاتها وثقافتها، ووقف المسلمون من هذه الثقافة الوافدة بين مؤيد لها ومعارض، فريق رفض هذه الثقافة وكفر هذه الحضارة، ونادى بتحريم الأخذ بها. وفريق تأثر بهذه الثقافة وانبهر بهذه الحضارة، ونادى بالأخذ بها والسير على نهجها في كل شيء، وفريق ثالث كان له رأي وسط وهو التوفيق بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوربية. ومن هذه الفرقة الأخيرة برز مفكرون تأثروا بالفلسفة العقلية الأوربية كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد إقبال وغيرهم، وحملوا لواء التوفيق بين العقل والنقل، وأن الدين لا يعارض العقل، فوقعوا في انحراف خطير، إذ جعلوا العقل ندا للوحي في هداية الإنسان، حتى قال محمد عبده في رسالة التوحيد : "فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله، والعقل الإنساني أثر أيضا من آثار الله في الوجود، وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها بعضا". وأفرطوا في استعمال العقل في فهم القرآن والسنة، ونادوا بتأويل النص القرآني والحديثي ليوافق العقل.

ولعب الاستشراق والتبشير دورا بارزا في نشر الثقافة الغربية ولغاتها، والطعن في الكتاب

---

(١١٣) انظر : محاربة الإسلام من داخله للدكتورة سارة بنت عبد المحسن، ص : ٣٥.

والسنة، فحاكوا حولها الافتراءات والأكاذيب، ليشككوا المسلمين في مصدر عقيدتهم، وتكلموا في أئمة الحديث وحفاظ الرواية، وفي الصحابة بل وفي شخص الرسول ρ . وتأثر بهم الفريق الثاني من المسلمين الذين نادوا بالانفتاح الكلي على أوربا، فطعنوا في الإسلام وشككوا في مصداقية السنة النبوية المطهرة [١١٤] . وكان لهذه الفئة مكانة هامة على الساحة الفكرية وشغلوا مناصب هامة أيضا، استطاعوا من خلالها تطبيق مبادئهم العلمانية كفصل الدين عن الدولة وعن الحياة العامة للمسلمين، مستغلين الخلل الكبير في موازين المجتمع الإسلامي وانحرافه الحاد عن أصول الشريعة وأسس الدين، وما أحدثه من فراغ فكري وعقائدي في نفوس المسلمين، فاستسلموا بشكل تلقائي لهذه الطروحات الخطيرة دون أدنى مقاومة.

أما الفريق الأول من المجتمع الإسلامي الذي حمل لواء المعارضة للثقافة الغربية، فقد حرم الأخذ بها وأصدر الفتاوى بتحريمها وتكفير كل من يتعلم لغتها أو علومها بما فيها العلوم البحتة كالرياضيات والفيزياء... وغيرها من هذه العلوم، واتهموا من يقبل على دراستها بالإلحاد والزندقة، فتقوقعت هذه الفرقة على نفسها مستسلمة لثقافة الزوايا [١١٥] التي تحث على الزهد والتقشف. فساهمت كل هذه الفرق في النهاية، في تعميق الهوة بين المسلم وبين مصادر شريعته الكتاب والسنة.

٢- المصطلحات الايديولوجية الحديثة :

كثف الغرب من حملته على المجتمع الإسلامي، فقذفه بعدد من المصطلحات الايديولوجية والأدوات التمويهية، شوشت على فكره وعقيدته، وموهت مضمونها لديه، كالتجديد والحداثة والعولمة والحوار بين الثقافات والأديان... وغيرها من هذه المصطلحات، لتحقيق غاية واحدة : احتواء العالم الإسلامي في إطار ثقافة موحدة، وهي الثقافة الغربية، وقد نجح الغرب في هذا الاختراق الثقافي والتبديل الحضاري إلى حد بعيد، غير من خلاله الأفكار والميول والتوجهات... وأحدث قطيعة خطيرة بين المسلم ومصدر عقيدته وهما الكتاب والسنة. ولعب الإعلام [١١٦] دورا هاما في الترويج لهذه الايديولوجيات بشكل مكثف، ورصدت لهذه الغاية أموال ضخمة، وسخرت لها طاقات أكاديمية من المستوى الرفيع، تفننت في وضع هذه المصطلحات التمويهية والأدوات الايديولوجية فكانت حملة منظمة على الإسلام والمسلمين.

---

(١١٤) قلت : ومن أحدث افتراءات هذه الفئة على الكتاب والسنة ما ذهب إليه المفكر المغربي محمد عابد الجابري في كتابه الجديد : مدخل إلى القرآن الكريم : حيث أنكر فيه أمية الرسول ρ وأنها ليست معجزة له، وأن القرآن ناقص سقطت منه عدة سور أثناء جمعه. وأن السنة في مجملها خبر آحاد، والآحاد ليس بحجة.. أنظر على سبيل المثال ١/٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤.

(١١٥) جمع زاوية وهي : أماكن خصصها المتصوفة لتلقين طرقهم الصوفية، فكانت الزاوية القادرية، والزاوية التيجانية، والزاوية الدرقاوية... وغيرها من الزوايا المنتشرة في عدد من بلاد المسلمين.

(١١٦) قلت : وأشد خطورة على المسلم، الإعلام الذي اصطلح على تسميته بالإعلام الإسلامي، فالرسالة التي يمررها هذا النوع من الإعلام تتماشى مع الطرح الغربي.

٣- المناهج التعليمية الحديثة :

التعليم هو البوابة الرئيسية التي مرر الغرب من خلالها لغاته وثقافته وإيديولوجياته للعالم الإسلامي، لذا عملت الدول الأوربية المستعمرة على رسم مناهج تعليمية تتماشى مع طروحاتها.

وكانت العلوم الشرعية هي المستهدفة بالدرجة الأولى، فعملوا على تنحيتها عن المناهج التعليمية، اللهم بعض المؤسسات الدينية العتيقة التي تركت على حالها بمناهجها التعليمية الجامدة، والتي فشلت في مواكبة روح العصر وتطوراته، فتقوقعت وانزوت عن الساحة الفكرية والعلمية، فلم تشكل لهم خطرا يذكر. وانعكست هذه الأوضاع على الناشئة، فأعطتنا جيلا منقسما على نفسه، أحدهما خريج المؤسسات الدينية العتيقة الغارقة في قالب من الجمود والتقليد، لا صلة له بالعلوم الحديثة والمتطورة، والآخر خريج المعاهد والجامعات الحديثة المتشبع بالفكر الغربي وعلومه الحديثة والمتطورة، الجاهل للعلوم الشرعية جملة وتفصيلا.

لقد أحدثت هذه المناهج التعليمية شرخا في الجيل الواحد، اتسعت هوته مع الزمن، وكانت النتيجة : أجيال متعاقبة لا هوية لها ولا هدف ولا رسالة... ضائعة بين التوجهات المختلفة، مما سهل الطريق أمام عملية الاختراق الثقافي للمجتمع المسلم ومحو هويته الذاتية، وتحويله إلى مستهلك للحضارة الغربية، بعدما كان صانعا للحضارة الإنسانية.

الخاتمة

قضت مشيئة الله I أن تبتلى هذه الأمة في سنة نبيها ρ وتختبر في المصدر الثاني من مصادر شريعتها، ليختبر الله من يثبت قلبه على الحق و من يزيغ. فظهر التزيد على الرسول ρ ، وألصقت الأكاذيب والافتراءات بسنته المشرفة، وأصبحت الروايات الواهية تتداول على نطاق واسع، تلقن في المجالس و الحلقات العلمية و على المنابر. و تعددت أسباب ظهورها، منها أسباب مباشرة كالفتن السياسية التي عرفتها الأمة الإسلامية خلال تاريخها السياسي الطويل، الذي شهد طوائف و مشارب و مذاهب عديدة، كان لها أثر سيء على السنة النبوية و على أئمتها. و منها أسباب غير مباشر كظهور اللحن بحكم اتساع رقعة الإسلام، و دخول أمم غير عربية الإسلام، فازداد الغلط و الوهم في رواية الحديث من نواح متعددة. كل هذه العوامل ساهمت في حدوث انحراف خطير في فهم السنة النبوية عند المسلمين في القديم. و قد استعرضت هذه الأسباب وبينت دوافعها الأساسية، وتناولتها بالدراسة و التحليل، و بينت أثرها على الشريعة الإسلامية بشكل عام، كما بينت جهود أئمة الإسلام في حفظ السنة النبوية. و حاولت كذلك الوقوف على أسباب الانحراف في فهم السنة النبوية في العصر الحديث، و بينت دوافعه الأساسية. و توصلت في نهاية البحث، إلى أن بلاء هذه الأمة في سنة نبيها مستمر إلى اليوم، و إن اختلفت الأزمان وتباينت الدوافع و الأسباب. وإذا كان سلفنا الصالح قد بذلوا جهودا عظيمة من أجل تأسيس منهج علمي فريد، حفظوا به سنة نبينا الكريم ρ ، فإننا في هذا العصر نحتاج كذلك لبذل الجهد كي نقعد لمنهج علمي حديث يوافق الزمان والمكان، نحفظ به سنة نبينا من الدسائس والمكائد التي تحاك حولها في كل وقت وحين، خاصة أن السنة النبوية في عصرنا الحديث تواجه عدوا شرسا له من الإمكانات والطاقات والكوادر العلمية المتطورة، استطاع حتى الآن عزل السنة

النبوية عن الساحة الفكرية والعلمية، فأحدث بذلك شرخا خطيرا في جسم الأمة الإسلامية.

كما توصلت في نهاية هذا البحث إلى أن الروايات الواهية لم تعد تشكل خطرا على السنة النبوية في عصرنا الحديث، و ذلك بعدما دونت السنة و أفردت للروايات الواهية مصنفات خاصة أحصتها و أحصت رجالها، بل إن الاشتغال بالإسناد و حفظ المتون بشكل عام لم يعد مجديا في العصر الحديث، فلا بد من تطوير مناهج تعليم السنة وتعلمها، وتكوين كوادر علمية متخصصة بعيدة عن الجمود والتقوقع على كتب التراث، قادرة على رصد تطورات العصر، تستطيع التقعيد لمنهج علمي حديث ومتطور، تحفظ به سنة نبينا ، حتى تعود السنة النبوية إلى الساحة الإسلامية من جديد، وتلعب دورها الأساس كمصدر ثاني من مصادر التشريع الإسلامي .

التوصيات :

- الاهتمام باللغة العربية وتطوير مناهج تعليمها وتعلمها.
- الاهتمام بالتعليم في مجال العلوم الشرعية والعمل على إخراجه من دائرة التلقين الجامد، ووضع مناهج تعليمية جديدة ومتطورة.
- الاهتمام بالبحث العلمي الأكاديمي في مجال العلوم الشرعية عامة والسنة النبوية خاصة.
- تنمية البحث العلمي في العلوم الشرعية، بإقامة شراكة علمية بين مراكز البحوث وبين المؤسسات التجارية والمالية. وتشجيع الاستثمار في مجال البحث العلمي الأكاديمي.
- إنشاء مراكز علمية يربى داخلها ويكون جيل من المفكرين والباحثين تكوينا ملائما لمواجهة التيارات الفكرية الدخيلة.

– والحمد لله رب العالمين –

فهرس المصادر والمراجع

* المصحف الشريف (برواية ورش).
* الإحكام في أصول الأحكام للإمام علي بن أحمد بن حزم الأندلسي : ط. مصر سنة ١٣٤٥هـ.
* الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر: ط ١، مطبعة السعادة مصر، سنة ١٣٢٨هـ.
* الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ لشمس الدين السخاوي : مطبعة الترقي ١٣٤٩هـ.
* البداية والنهاية عماد الدين بن كثير الدمشقي : ط ٢، مكتبة المعارف، بيروت، سنة ١٩٧٧م.
* تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (أحمد بن علي) : دار الفكر.
* تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لأبي الوليد بن الفرضي ط: الخانجي مصر: سنة ١٣٧٣هـ.
* تدريب الراوي شرح تقريب النووي للحافظ جلال الدين السيوطي بتحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، ط ٢، مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٣٨٨هـ.
* تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين الذهبي : دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* التقييد و الإيضاح للحافظ زين الدين العراقي ط٢–مؤسسة الكتب العلمية سنة ١٤١٣هـ.
* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد يوسف بن عبد البر القرطبي، تحقيق مجموعة من الأساتذة : ط ٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب]، سنة ١٤٠٢هـ.
* تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة والموضوعة لأبي الحسن بن عراق الكناني : مكتبة القاهرة، بدون تاريخ.
* تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني : ط دار صادر بيروت.
* الثقات للحافظ محمد بن حبان البستي ط١ مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت سنة ١٤٠٥هـ
* الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري : مطبعة دار الفكر سنة ١٤٠١هـ.
* الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج القشيري بشرح النووي : دار الكتب العلمية، بيروت.
* حلية الأولياء و طبقات الأصفياء لأحمد بن عبد الله الأصفهاني ط١ دار الكتب العلمية ١٣٩٥
* الخلاصة للحافظ صفي الدين بن عبد الله الخزرجي : مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب.
* الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي – تحقيق أحمد محمد شاكر : دار الفكر سنة ١٣٠٩هـ.
* رسالة التوحيد محمد عبده تحقيق محمد عمارة ط١ مركز الحضارة العربية سنة ١٩٩٠
* روض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس : ط٢، مكتبة لبنان.

* سنن أبي داود سليمان بن عبد الله بن الأشعث السجستاني بشرح عون المعبود، نشره الحاج حسن إيراني : دار الكتاب العربي، بيروت.
* سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي شعيب الأرناؤوط : ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ.
* شروط الأئمة الخمسة لأبي بكر الحازمي بتعليق محمد زاهد، نشر مكتبة عاطف بمصر.
* الضعفاء الصغير للإمام محمد بن إسماعيل البخاري : ط حيدر آباد، الهند، سنة ١٣٢٥هـ.
* الضعفاء الكبير للإمام محمد بن إسماعيل البخاري : ط حيدر آباد، الهند، سنة ١٣٢٥هـ.
* الضعفاء و المتروكين للإمام أبي عبد الرحمن النسائي بتحقيق بوران الضناوي و كمال يوسف الحوت : ط

دار الفكر للطباعة و النشر١٤٠٥هـ
* طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي : دار المعرفة، لبنان.
* فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني : دار إحياء التراث العربي.
* فتح المغيث لشمس الدين السخاوي تحقيق عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة ١٣٨٨هـ
* الفتوحات المكية لمحي الدين بن العربي تحقيق أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية ٢٠٠٦
* الفرق بين الفرق و بيان الفرقة الناجية منهم للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي : تحقيق محمد زاهد الكوثري ط / الثقافة الإسلامية سنة ١٣٦٧هـ .
* الفهرست لابن النديم (محمد بن إسحاق) ط ليبسك ١٨٧١ .
* الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني محمد بن علي، بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني : ط ٢، سنة ١٣٩٢هـ.
* قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار.
* الكفاية في علم الرواية للحافظ الخطيب البغدادي : ط ١، السعادة بمصر.
* لسان العرب لابن منظور الإفريقي ط صادر– بيروت .
* لسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني : ط ٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، سنة ١٣٩٠م.
* المجروحين من المحدثين لابن حبان البستي : ط ١، حيدر أباد.
* محاربة الإسلام من داخله للدكتورة سارة بنت عبد المحسن بن جلوي : ط ١، مركز الأمير عبد المحسن بن جلوي سنة ١٤٢٣هـ.
* مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري : ط ٢، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
* المذاهب الفقهية الإسلامية و التعصب المذهبي لمحمد ناجا– ط٣ دار قتيبة للطباعة و النشر ٢٠١٠.
* مروج الذهب للمسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : ط ٥، بيروت سنة ١٩٦٥م.
* المسند لأبي يعلى أحمد بن علي الموصلي – تحقيق حسين سليم أسد – ط ١ دار المأمون للتراث دمشق سنة ١٤٠٤هـ.
* معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري بتصحيح الدكتور السيد معظم حسين من منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر بيروت.
* مقالات ومحاضرات في الحديث النبوي وعلومه للدكتور إبراهيم بن الصديق : ط ١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، سنة ١٤٢٣هـ.
* مقدمة ابن الصلاح للحافظ أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المشهور بابن الصلاح ط٢مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١٣هـ بيروت.
* مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي – نشر دار ابن خلدون سنة ٢٠٠٨.
* منظومة ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن) مع التقييد والإيضاح : ط ٢، مؤسسة الكتب الثقافية.
* المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل للدكتور فاروق حمادة : ط ١، مكتبة المعارف، الرباط، سنة ١٤٠٢هـ.
* الموضوعات لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي : ط ١، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
* ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ شمس الدين الذهبي : ط ١، سنة ١٣٨٢هـ.
* نقد المسلمين للثنوية والمجوس مع الرد على ابن المقفع بقاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي– تحقيق إمام حتفي عبد الله : نشر دار الآفاق العربية – مصر ط١ سنة ١٤٢٠.

* وفيات الأعيان و أنباء الزمان لابن خلكان –دار صادر بيروت.